سِفْرُ الحرب والمقاومة

فؤاد حجازى



سلسلة تعنى
بنشر الإبداعات
العربية

مستشارا التحرير
حزين عمر
فؤاد حجازي

المشرف العام
عبد الفتاح عبد الرحمن الجمل

المراسلات :
باسم المشرف العام ـ المنصورة – كفر البدماص ـ ش أحمد فؤاد رقم ٢٤
ت : ٢٣٢٦١٤٧ — ٢٣٢٦١٢٣ / ٠٥٠

استراتيجية ثابتة وخطأ متكرر

عندما أراد الفرس الاستيلاء على مصر ، أنشأوا قاعدة يهودية فى فلسطين ، عبروا منها إلى الحدود الفلسطينية ، وسمحوا لليهود بإنشاء مستعمرة فى أسوان ، وحارب الجنود المرتزقة من اليهود فى صفوف الجيش الفارسى .

وعندما أرادت بريطانيا ، ومن بعدها الولايات المتحدة الأمريكية، السيطرة على مصر والعالم العربى ، أنشأت اسرائيل ، قاعدة متقدمة للغرب ، لعزل شرق العالم العربى عن غربه ، ولاستنفاد قواه فى حروب واعتداءات متتالية ، عطلت خطط التنمية ، فظل متأخراً وأصبح سوقاً رائجاً للبضاعة الأجنبية ، وعاجزاً عن استغلال ، فضلا عن السيطرة ، على موارده الطبيعية .

وسلمت بريطانيا فى نهاية الحرب العالمية الأولى ، والتى كانت منتدبة على فلسطين ، البلد إلى الإسرائيليين هدية سائغة ،تماما كما فعل الفرس الذين كانوا يحتلون مصر ، وقت وصول الإسكندر الأكبر ، فسلموها له على طبق من فضة دون قتال .

وقبل أن يبدأ الإسكندر فى تشييد امبراطوريته ، كانت استراتيجية أثينا ، إضعاف أقوى دولتين فى العالم القديم ، مصر وفارس ، فسمحت للمرتزقة اليونانيين بالعمل فى صفوف الجيشين المتحاربين المصرى والفارسى ، لإضعافهما ، وبعدها لم يجد الإسكندر صعوبة تذكر فى الاستيلاء على البلدين .

وقبل أن تغزو الولايات المتحدة الأمريكية العراق ، فيما عرف

بحرب الخليج الثالثة ، دفعته إلى حرب لا طائل من ورائها ، فغزا إيران (فارس) ، واستنزف جيشه وموارده ، كما استُزفت عائدات الدول النفطية من الدولارات تارة بمساعدتها للعراق ، وأخرى بمساعدة الغرب فيما سمي بحرب تحرير الكويت . وتمكنت الولايات المتحدة من غزو العراق، وسيطرت على العالم العربى كله ، وأصبحت اسرائيل فى مأمن .

الاستراتيجية بالنسبة للغرب الاستعمارى ، لم تتغير ، من أثينا إلى أوربا الغربية إلى الولايات المتحدة الأمريكية .

وأسباب هزائمنا لم تتغير ، ونكرر أخطاءنا .

لقد تمكن الهكسوس من مصر ، فى وقت كانت منقسمة فيها على نفسها ، بعد انهيار الدولة القديمة ، وكان يحكمها عدة ملوك فى وقت واحد ، وكانت أوضاعها الاقتصادية متردية .

وعندما جاء الفرس ، كانت تسود ظروف مشابهة ، بعد انهيار الدولة الوسطي ، وقد استنزفت مصر الحروب الداخلية .

واليوم ، يتمكن الغرب الاستعمارى من الأمة العربية ، بسبب التمزق الداخلى ، فى كل بلد ، وبسبب الفرقة بين البلاد العربية ، فلا توجد فى أي بلد عربى حكومة تعبر عن كل تيارات البلد الذى تحكمه (حكومة جبهة وطنية) ، ولا يوجد اتحاد أو تضامن بين الدول العربية ولا استراتيجية واضحة لمواجهة المستعمر سواء كان اسرائيلياً أو أمريكيا أو أوربيا.

وبالأمس أخطأت مصر خطأ استراتيجياً قاتلاً ، عندما تحالفت مع أثينا ، وأرسلت لها معونات اقتصادية ، وجلبت المرتزقة اليونانيين ليحاربوا فى جيشها ، فكانوا وقت الحسم لا يعنيهم الأمر بقدر ما يعنيهم الحصول على ذهب المصريين و ذهب الفرس .

وعندما كانت مصر لا تجند سوي الفلاح المصرى فى جيشها ، حتى قبل وصول الفرس بقليل ، كانت تحرز الانتصارات دائما .

ولم تتعلم مصر من خطأ سابق عندما استعانت بالجنود المرتزقة من قبيلة المشوش ذات الأصل الليبى ، والمقيمة فى مصر منذ قرن من

الزمان ، انتهز أحدهم فرصة ضعف مصر الداخلي وقفز إلى السلطة وأنشأ أسرة حكمت مصر .

واليوم تقع مصر والدول العربية فى نفس الخطأ الاستراتيجي ، تعتمد على الغرب والولايات المتحدة ، للحصول على حق العرب فى فلسطين ، وتقيم العلاقات السياسية والاقتصادية مع المرتزقة الإسرائيليين .

والنتيجة مزيد من التمزق للأرض الفلسطينية ، ومزيد من الاحتلال لأراضى الدول العربية ، وإذا كان هناك من يلتمس العذر لمصر فى السابق . حيث كانت الصراعات الداخلية تمزقها ، والعدو الخارجي (الفرس) على الأبواب ، ولا وقت للتجنيد والإعداد للحرب، فكانت الاستعانة بالمرتزقة اليونانيين ، فما هو العذر اليوم .. ؟!

لقد عرف اليونانيون جغرافية مصر جيداً ، كما خبروا عادات شعبها ودياناته .. وبذلك كان الطريق ممهداً أمام الإسكندر .

لابد من الاعتماد على قوانا الذاتية ، وأن نقف جبهة واحدة فى داخل كل قطر عربى ، وجبهة واحدة بين الأقطار العربية ، من أجل هدف واحد هو هزيمة اسرائيل .

إن احتلال اسرائيل لفلسطين يزيد قليلاً عن خمسين عاماً ، وليس هذا شيئا يذكر فى عمر الشعوب . لقد مكث الهكسوس فى مصر قرنا ونصفا من الزمان ، وفى الشام قرناً آخر ، وفى النهاية بقيت مصر واختفى الهكسوس من الجغرافيا والتاريخ .

وحاول الفرس طوال قرن ونصف بناء إمبراطورية فى هذه المنطقة، والسيطرة على مصر ، وفى النهاية انهارت الإمبراطورية الفارسية .

ومن بعدهم جاء الإغريق ، والرومان ، والمغول والصليبيون و العثمانيون والفرنسيون والبريطانيون .. وذهبوا جميعا .. وبقيت مصر والشعوب العربية .

في البدء كان القضاء على الهكسوس

منذ توحدت الدلتا مع الصعيد ، وقامت الدولة فى حدودها الجغرافية ، التى نعرفها اليوم ، ظلت مصر مستقلة ، ما يقرب من ألفى عام متصلة ، حتى جاء الهكسوس .

قال مانيتون المؤرخ المصرى ، أن الهكسوس قد استولوا على مصر دون معركة ..

وتؤكد الشواهد التاريخية ، أنهم لم يحضروا جيوشهم فجأة لاحتلال البلاد .. ولكنهم وفدوا إلى مصر جماعات صغيرة متفرقة ، وظلت أعدادها تزيد ، إلى أن أصبح لهم نفوذ سياسى كبير .. وفى نهاية عصر الدولة الوسطي ، كانت مصر ممزقة ، تحكمها أكثر من أسرة . . وبعض الولاة استقلوا بولاياتهم .. وكان الهكسوس قد وطدوا نفوذهم فى سوريا وفلسطين .. تشهد بذلك المدن التى خططوها .. وتنظيمهم للحياة والتجارة فيها ، سواء فيما بينها أو فيما بينها وبين جزر البحر المصرى (الأبيض المتوسط) وكان الساحل السورى والفلسطيني يزخر بالموانئ الصالحة للتجارة ، وكانت المواد الكمالية تأتي من قبرص ، وكانت محاصيل الهكسوس تشحن إليها . ولما أصبحت الظروف مواتية لهم .. استدعوا قواتهم من الشام .. وسيطروا بسهولة على دلتا النيل .. وظلوا فى مد وجزر .. إلى أن سيطروا على مصر الوسطي ، ووصلت حدودهم إلى القوصية .. ولقد ظل الهكسوس فى مصر قرابة قرن ونصف من الزمان ، فقد دخلوها عام ١٧٣٠ ق .م وخرجوا منها عام ١٥٨٠ ق م .

ولقد بدأ تغلغل الهكسوس فى مصر فى عهد سنوسرت الثاني ما بين عامي ١٩٠٦ – ١٨٨٧ ق م فى منتصف عصر الدولة الوسطي ، ومصر فى أوج عظمتها ، وكان الساحل السورى موالياً لها . ويحدثنا التاريخ أن الكاسيين قد استولوا على بابل بنفس الطريقة .

وباستقراء الآثار الثقافية ، التى تركوها فى سوريا وفلسطين ومصر .. قد نستطيع أن نعرف من أين أتت هذه الأجناس .. فقد لوحظ التقدم الزخرفى على القدور فى مصر والشام ، ولم يكن معروفاً من قبل ، كما أحضروا معهم معد البرونز ، وكان النحاس هو المعدن الهام قبل ظهورهم .. وظهور البرونز يحدث انقلاباً فى الحيانين المدنية والعسكرية .

فإضافة القصدير إلى النحاس ، ينتج معدناً أشد صلابة ونفعاً من النحاس ، ويساعد على إحداث تحسينات فنية ، وهذه السبيكة تنصهر فى درجة حرارة منخفضة ، مما يوفر الطاقة (الخشب وقتها) .

وقد نتج عن هذا المعدن الجديد (البرونز) طراز خاص من الأسلحة، كما أفاد فى صناعة الحلى . وكانت حصون الهكسوس تبني بطريقة مختلفة ، فهى مستطيلة ، وتحوي طواراً منحدراً ، يُبني فوقه جدار البلدة نفسها ، وزيادة فى التحصين ، كان الحصن يُحاط بخندق .

كما جلبوا معهم الخيل والعربات الحربية ذات العجلتين .

وصناعة البرونز كانت معروفة فى " سومر " والأناضول فى النصف الأول من الألف الثالثة ، وبعض الأشكال المعدنية من الطراز الهكسوسى قد وردت من " مسوبوتاميا " (بين نهرى دجلة والفرات) ، كما أن أرمينيا وإيران قد تكونان مصدراً لاستخراج القصدير .

وبالنسبة للحصان فالفكرة العامة أن له علاقة بالأقوام الآرية ، ويمكن اقتفاء أثر الكلمة المصرية والسامية الدالة على أصل الحصان إلى اللغة الهندية الإيرانية ، وهى " أسوا " فى السانسكرت " أسفا " كما توجد كلمة أخرى تدل على العربة وهي سامية الأصل .

هذا وينسب اختراع الحصون المستطيلة إلى الآريين ، كما كانت هذه التحصينات منتشرة فى جنوب روسيا .. وبناء عليه فإن القوقاز ، يحتمل أن تكون طريقاً سلكه المهاجرون .

ويمكن القول أن الهكسوس المهاجرين ، أجناس مختلطة غلب عليها العنصر السامي وانتسبت بشكل أو بآخر إلى الهنود الإيرانيين والآريين والحورانيين (شمال سوريا) وإلى أرمينيا والقوقاز ، ومن المحتمل أن طائفة " الخبيرو " قد صاحبت المهاجرين وهي خليط من أجناس لا طابع خاص لها ، ارتقت فيما بعد إلى مرتبة طائفة قومية هي طائفة اليهود .

أما كلمة " هكسوس " :

" تنسب نشأتها للمؤرخ مانيتون ، والتفسير اللغوي الذى وضعه لها مقبول ، وذلك لأن كلا من جزءى الكلمة له ما يقابله فى اللغة المصرية القديمة ، فكلمة " حقا " معناها حاكم وكلمة " شاسو " معناها بدوي ، ومن الجائز أن الأخيرة كتبت بالإغريقية " سوس " وبالقبطية " شوس " . وعلى أي حال فإن الرأي المتفق عليه الآن فى تفسير كلمة هكسوس " هو أنها مركبة من كلمتي " حقاو " و " خاسوت " ومعناهما معا هو " حكام الأقاليم الأجنبية " وهذا التفسير لا يتناقض مع ما جاء فى القاموس المصرى القديم " ص٦٠ الجزء الرابع . مصر القديمة .

قيامة مصر :

أدي انهيار مصر فى آخر عهد الدولة الوسطي ، إلى تقسيم البلاد إلى ولايات أخذ حكامها يتناحرون ، مما جعل مصر تتردي أكثر اقتصاديا واجتماعياً ، وكان هذا السبب الأول فى الهزيمة ، وسرعان ما ظهر ملوك أقوياء ، أخذوا يوحدون تحت سلطانهم الولايات غير الخاضعة للاحتلال، وأصلحوا الحالة الإدارية والاقتصادية . والحق أن مصر كانت فى موقف صعب .. فالهكسوس يهددونها من الشمال .. والنوبيون (السودانيون) أنشأوا مملكة كوش بالقرب من أسوان ، وهددوا مصر من الجنوب .

واستوعب المصريون سريعا الجديد فى ثقافة الهكسوس ، الذى كانوا يجهلونه رغم تقدمهم ، فاستخدموا الحصان والعجلة الحربية ومعدن البرونز .

وأثناء ذلك لم تنقطع مقاومة المصريين للعدو .. فكانت البداية بمقاطعته ، ومنع الاتصال به وها هو الملك " نب خبر رع " يصدر مرسوماً لمعاقبة شريف يدعي " توتي " اشترك فى مؤامرة مع أعداء الملك ، ويحتمل أن الأعداء المشار إليهم فى المرسوم هم " الهكسوس " حكام الدلتا ، وربما كانوا قبائل الصحراء الذين كانوا ينتمون إليها . وهذا المرسوم نقشه الملك على مدخل باب جميل بناه " سنوسرت " الأول فى معبد " فقط " . ومما يدل على حرب هذا الملك مع الهكسوس ، العثور على تمثال صغير فى مقبرة زوجته الملكة " سبكاف " وظهر فيه منتصراً على الأسيويين (الهكسوس) والسود (النوبيون)

مرسوم " قفط " :

" السنة الثانية الشهر الثالث اليوم الخامس والعشرون من حكم الملك " نب خبر رع " ابن الشمس " أنتف " الذى منح الحياة مثل إله الشمس مخلدا . أمر ملكي لحامل الخاتم أمير " قفط " المسمي " منمحات " ولابن الملك وحاكم قفط " قانن " ولحامل الخاتم كاهن الإله " مين " ولكاتب المعبد " نفر حتب ور " ولكل جنود قفط ولكل موظفى المعبد: تأملوا أن هذا المرسوم قد صدر إليكم ليجعلكم على علم بأن جلالتي قد أرسل كاتب الخزانة المقدسة للإله " آمون " وكذلك المسمي " سامون " وكبير رجال المحكمة ليقوموا بتحقيق فى معبد آمون وقد جاء من أجل ذلك موظفو معبد والدى آمون إلى جلالتى بتقريرهم قائلين : إن مكروهاً يوشك أن يقع فى هذا المعبد ، وذلك أن " توتي بن منحوتب " لعن اسمه قد تستر على العدو . فليطرد من معبد والدي " مين " وليحرم نصيبه من الخبز واللحم ، وليجعل اسمه منسيا فى هذا المعبد ، وذلك على حسب ما يستحقه فرد مثله قد ثار وولى وجهه نحو أعداء إلهه . ولتمح ذكريات اسمه فى معبد " مين " وفى " الخزانه " وفى كل وثيقة أيضا .

وأي ملك أو حاكم سيصفح عنه دعوت عليه أن يحرم التاج الأبيض ، ولا يلبس التاج الأحمر ، وألا يجلس على عرش " حور " الملك الحي ، وألا يفوز بعطف ربتى العقاب والصل .

وأي حاكم أو موظف ينصح للفرعون بالعفو عنه أمسى أهله ومتاعه وأملاكه ملكاً لوقف والدي " مين " رب قفط . وكذلك يجب ألا يعين فى

وظيفته أي فرد من أسرته ، أو أقارب والده أو والدته ، بل يعطي حامل الخاتم والمشرف على الأملاك الفرعونية " منمحات " وظيفته على أن يُعطي ما يخصها من خبز ولحم ، وأن يثبت ذلك كتابة فى معبد والدي " مين " رب " قفط " وكذلك يكون ذلك لنسله من ولد لولد ووارث لوارث " ص ١٠٢ — ١٠٣ الجزء الرابع . مصر القديمة .

ولم تنقطع المناوشات مع العدو .. وها هو الملك " أبو فيس " فى عاصمته أواريس فى شمال الدلتا يدعي أن أصوات جاموس البحر التى تعيش فى بحيرة طيبة ، والتى تبعد عنه بأكثر من خمسمئة ميل تزعجه وتقض مضجعه ، ولذلك يطلب من ملك طيبة سقنن رع (تاعا الثاني) أن يبيد جاموس البحر إذا أراد أن يحوز على رضاه .

ولقد عرفنا هذه القصة من ورقة تعرف باسم ورقة ساليه ، وهذه القصة كتبت بعد العصر التي وقعت فيه حوادثها بـ أربعمئة عام ، وهي مكتوبة كتمارين لتلاميذ المدارس . ولقد وصلت إلينا هذه القصة ناقصة ، فلم نعلم ماذا كان رد ملك طيبة عليه .

ويعلق الدكتور سليم حسن على هذه القصة بقوله :

" نحن نعرف أن البلاد قد غزاها الهكسوس ، وأن ملوك " طيبة " كانوا يناهضون الغزاة ، ومن المحتمل جداً أن تكون هذه المقاومة قد بدأت فى عهد " سقنن رع تاعا " المعاصر للملك الهكسوس المسمي " أبو فيس " " عاقنن رع " والذى اتخذ " أواريس " صا الحجر الحالية عاصمة له . وإذا صح ذلك كان طلب ملك الهكسوس الغريب مجرد ذريعة اتخذها لإعلان الحرب على ملك طيبة الذى يكيد له ، وتكون قصة الذئب والحمل التى نتناقلها ونتمثل بها فى التاريخ الحديث صدي لأختها قصة إبادة جاموس البحر فى العصر القديم . ويعزز هذا الرأي بردية من عهد الدولة الحديثة تؤيد ما سبق . إن لم يكن ما جاء فيها ترداداً لتلك الحوادث الدامية التى أدت إلى طرد الهكسوس من البلاد .

كما أنه ليس من البعيد أن تكون هذه القصة خرافية ، وأنها من وحي الخيال جملة ، وأن دس هذه الأسماء الحقيقية التى وردت فى

ثناياها كانت لتكسبها أهمية ، ولتذكر القارئ بصفحة منسية من تاريخ بلاده" . ص ١٠٦ . الجزء السابع عشر . مصر القديمة .

وربما قصد المؤلف بهذه القصة أن يستنهض روح النخوة عند الناس، عندما يذكر لهم استفزاز العدو ، سواء كان ذلك صحيحاً تاريخياً أم لا ، وعلى أي حال ، فالقصة ترينا الجو الذى ساد فى هذه الفترة .

وغير بعيد عن هذا الجو الحالة التى وجدت عليها مومياء الملك " سقنن رع " الشخصية الرئيسة فى هذه القصة .

يصف الأستاذ " اليوت سمث قصة موت الملك " سقنن رع " بعد فحص جثمانه فيقول : " إنه كان فريسة هجمة غادرة قام بها عدوّان أو يزيد ، فقد أخذ على غرة عندما كان نائما فى فراشه ، أو أنهم تسللوا من خلفه وطعنوه بخنجر تحت أذنه اليسرى فغاص الخنجر فى عنقه ، ولقد كانت الضربة مفاجئة فلم يقو على رفع يده ليدرأ عن نفسه ضرباتهم التى انهالت من (البلط) والسيوف والعصى على وجهه فهشمته تماما وهو ملقى طريحاً . وتدل شواهد الأحوال على أن تجهيز الجثة للدفن كان على عجل . وأن عملية التحنيط كانت بسرعة فائقة فجاءت غاية فى الاختصار ، ولم تعمل أي محاولة لوضع الجسم فى وضعه الطبيعي المستقيم ، إذ ترك منكمشا كما كان طريحا وهو فى حالة النزع ، فكان الرأس ملقى إلى الخلف ، ومنثنيا نحو اليسار، ولسانه بارز من فمه يضغط عليه بأسنانه توجعاً وألماً ، ولم يمسح سائل مخه الذى كان يجرى على جبينه بسبب الجروح التى أصابت رأسه " . ص ١١٩ و ص ١٢٠ الجزء الرابع . مصر القديمة .

ولذلك فمن المحتمل أنه مات فى ساحة القتال وأن تحنيطه فى مكان القتل كان إجراءً مؤقتاً لعدم توفر المعدات ، وترتكز نظرية قتله فى ساحة القتال ، على مناهضته لملك الهكسوس " أبوفيس " . وليس هناك ما يدعو إلى نقض هذه النظرية . واستمرت المقاومة سجالاً بين الهكسوس وبين الملك كامس الذى خلف هذا الملك .

نعلم ذلك من نقوش بالخط الهراطيقى على لوح عثر عليه " اللورد كارنرفون " فى طيبة .

نذكر منه :

" وقد تكلم جلالته في قصره إلى مجلس كبار الدولة الذين كانوا فى حاشيته قائلا إلى أي مدي أدرك كنه قوتي هذه عندما أري حاكماً فى أواريس " وآخر فى بلاد " كوش " (بلاد النوبة) وأنا أجلس فى الحكم مشتوكا مع رجل من " العامو " (الهكسوس) وعبد ، وكل رجل منهما مسئول على جزئه من مصر هذه ؟ وذلك الذى يقاسمني الأرض لا أجعله يمر فى ماء مصر حتى " منف " تأمل ..! إنه يسطر على الأشمونين ، ولا يرتاح رجل لصيرورته عبداً للسيتو (الأسيويين) وإني سأصارعه وأبقر بطنه ، وإن رغبتي هي تحرير مصر والقضاء على الأسيويين " ص ١٤٠ . الجزء الرابع . مصر القديمة .

ويقول فى موضع آخر من نفس اللوح :

" لقد أقلعت منحدراً فى النيل بوصفى محارباً لأهزم " العامو " بأمر " آمون " صادق النصيحة وقد كان جيشى شجاعاً يسير أمامي كأنه عاصفة من نار ، وكان جنود " المازوي " فى مقدمة معاقلنا ليتجسسوا على مواقع السيتو ، وليدمروا مواقعهم شرقا وغرباً " . ص ١٤١ . الجزء الرابع . مصر القديمة .

وبالفعل ينجح كامس فى طردس الهكسوس من مصر الوسطي، لكنه قضى نحبه ..

" وقد لوحظ أن مومياء الملك (يقصد كامس) لم تجهز للدفن بعناية كما كان الحال فى كثير من الأحيان فى هذا العصر المضطرب ، ولذلك فإنه عندما كشف " مريت " الغطاء ذهبت هباءً لتحللها تحللاً كلياً " ص ١٣٥ . الجزء الرابع . مصر القديمة .

ولم يكن التابوت من الأنواع الملكية الفاخرة ، الموشاة بالذهب ، بل كان من النوع الريشى الخاص بالأشخاص العاديين ، وهو تابوت رخيص، مما كان يشترى من محل المتعهد .

ويدلنا هذا أن الملك مات بعد زمن قصير من توليه الحكم ، حتى أنه لم يتمكن من إعداد تابوت يليق به كملك ، فدفنه خليفته " أحمس " على عجل ، ليفرغ لقيادة المعركة .

وعندنا شهادتان عن بعض ما حدث ..

الشهادة الأولى :

" أحمس بن أبانا " كتب تاريخ حياته على جدران قبره بالكاب :

" وعندما أسست منزلاً (أي تزوجت) نقلت على ظهر السفينة المسماة " الشمالية " لأني كنت شجاعاً ، وكنت قد اعتدت مصاحبة الملك (يقصد الملك أحمس) ، على الأقدام ، فى خلال أسفاره إلى الخارج فى عربته، وعندما جلسوا أمام مدينة " أواريس " (حاصروها) أظهرت شجاعة ، وأنا على قدمي فى حضرة جلالته وعلى ذلك رقيت إلى السفينة المسماة " الظهور " فى " منف " .

وعندما بدأوا الحرب على الماء فى القناة " بزدكو أواريس " أسرت أسيرا وأحضرت يدا ، وقد أعلن ذلك لحاجب فرعون ، ومن أجل ذلك أعطيت " ذهب الشجاعة " .

وقد أعيد القتال فى هذا المكان ، وقمت بأسر أسير آخر هناك ، وأحضرت يداً فأعطيت " ذهب الشجاعة " ثانية ، وعندما حاربوا فى مصر فى الجزء الجنوبى من هذا البلد (أي أواريس) أحضرت أسيرا حيا، وقد ذهبت به إلى الماء لأنه كان قد أسر فى الجهة التى فيها المدينة، وحملته معي فى الماء إلى الجهة الأخرى ، وقد أعلن حاجب الملك بذلك ، وتأمل : لقد كوفئت (بذهب الشجاعة) من جديد ثم ساروا بعد ذلك لنهب " أواريس " وقد أحضرت من هناك أسلابا : رجلا واحداً وثلاث نساء أي مجموع أربعة رؤوس ، وقد أعطانيهم جلالته عبيداً . ثم حاصروا بلدة " شاروهن " ثلاث سنوات ، وعندما نهبها جلالته أحضرت من هناك غنائم : امرأتين ويداً (كانوا يقطعون يداً للقتيل لإثبات عدد القتلى) ، وقد أعطيت " ذهب الشجاعة " وتأمل فإن غنيمتي قد أعطيتها عبيدا " ص ١٤٣ — ١٤٤ . الجزء الرابع . مصر القديمة .

" وشاروهن " التى تقهقر إليها الهكسوس (تقع جنوب فلسطين)، وقد سلمت بعد حصار ثلاث سنوات . ومن المحتمل أنها توجد ببلدة " تل الفارا " الحالية .

والشهادة الثانية :

تركها على جدران مقبرته فى الكاب " أحمس بنحتب " ، وهو جندي ولد فى نهاية الأسرة السابعة عشرة وعاش حتى عهد الملك تحتمس الثالث ، وشارك فى حملة أحمس فى مطاردة الهكسوس .يقول :

" لقد رافقت ملك الوجه القبلي والبحرى (أحمس الأول) المرحوم وقد غنمت له من " زاهي " أسيراً حياً ويدا " و " زاهي " هذه تعرف على وجه عام عند المؤرخين بأنها " بلاد فينقيا " . ص ١٥١ . الجزء الرابع. مصر القديمة .

وعاد أحمس سريعاً ، ليقضى على الخطر الرابض فى الجنوب .. ويحقق النصر على النوبيين .

بعد طرد الهكسوس من مصر ، تقدمت مصر فى مختلف المجالات .. وأصبحت قوة عسكرية كبيرة . ولقد ظل الهكسوس فى الشام ما يقرب من قرن من الزمان يثيرون القلاقل ويهددون السيادة المصرية ، فقام تحتمس الأول بحملة إلى آسيا وصلت فى سيرها حتى بلاد نهرين بين نهرى دجلة و الفرات ، وبعده قاد تحتمس الثاني فى مدة حكمه القصيرة حملة أخرى .

وفي عهد تحتمس الثالث تكون حلف من السلالات الموجودة فى سوريا وفلسطين ، ومن ضمنهم الهكسوس والعبرو ، وهم الذين ورد ذكرهم فى خطابات تل العمارنة باسم " الخبيرو " ، العبرانيون فيما بعد. ولقد تزعم هذا الحلف ملك قادش ، وهي بلدة على نهر العاصى على مسيرة مئة ميل شمال دمشق ، وأعلنوا التمرد على الحكم المصرى الذى أرساه تحتمس الأول منذ خمسين سنة . و زحف تحتمس بجيشه لملاقاة هؤلاء العصاة .

ونقرأ فى يوميات المعركة على معبد الكرنك :

" السنة الثالثة والعشرون ، الشهر الأول من فصل الصيف ، اليوم السادس عشر فى بلدة " يحمم " . (يحتمل أن تكون يما الحالية على مسافة ثمانين ميلا من غزة) لقد أمر جلالته أن يعقد مجلس حربى ليتشاور مع رجال جيشه قائلا : إن ذلكم العدو الخاسئ صاحب قادش قد

جاء بجيشه ونصب خيامه فيها ، وهو مقيم بها فى تلك الآونة ، وقد ضم إليه كل أمراء الأقاليم الذين كانوا يدينون بخضوعهم لمصر حتى نهر الفرات .. ومعه السوريون وقوم " قودة " بخيلهم وجنودهم وعشيرتهم ، وأنه يقول على حسب ما وصل إلى مسامعنا : سأقف هنا لمحاربة جلالته فى بلدة " مجدو " فحدثوني ما يدور بخلدكم فى هذا الخطب " . ص ٣٩٨ الجزء الرابع . مصر القديمة .

وخلافاً لنصيحة مستشاريه ، صمم تحتمس على عبور ممر "عرونا" الضيق الوعر ، لمفاجأة العدو من حيث لا يتوقع وهنا تظهر عبقريته العسكرية ، وجسارته كقائد يخوض الحرب بنفسه على رأس جيشه. ونقرأ فى اليوميات :

" وبعد ذلك انطلق جلالته فى عربته المصنوعة من الذهب النضار مدججاً بدرعه وزرده مثل الإله " حور " القوى الساعد رب البأس ومثل الإله " منتو " إله طيبة (وهو إله الحرب) وكذلك كان والده آمون يشد أزره " . ص ٤٠٠ . الجزء الرابع . مصر القديمة.

وكانت عبقرية تحتمس قد تفتقت عن تقسيم جيشه إلى قلب وجناحين لأول مرة فى تاريخ الحروب ، واستطاع تشتيت شمل العدو . الذى انسحب إلى بلدة " مجدو " ، فحاصرها الجيش المصرى ، سبعة أشهر حتى سلمت له .

بعد ذلك بني تحتمس أسطولاً قوياً .. استولي به على الساحل الفينيقى (اللبناني) .. وزحف منه بجيشه للاستيلاء على قادش (لأول مرة فى التاريخ أيضا تنطلق الجيوش من البحر).. وتجلت عبقريته الحربية : بنى السفن فى الثغور .. ثم حملها مفككة على ظهر عربات خاصة أعدها لهذا الغرض .. وعبر بها الفرات للاستيلاء على مملكة " نهرين " لتأمين الشام تماما .

وكان له ما أراد :

" ويقول الدكتور (ولسن) إن اللورد اللنبى سار على خطط تحتمس الثالث فى إحراز النصر على الأتراك فى اختراق ممر "عرونا " الذى سلكه فاتح مصر العظيم . ويحدثنا المؤرخ (فولكنر) أن القائد الأكبر

(مونتجمرى) قد نقل السفن الصغيرة من شاطئ البحر محمولة حتى نهر الراين ليعبر بها هذا النهر ويباغت العدو ، ثم ينتصر عليه كما انتصر تحتمس عندما نقل أسطوله إلى نهر الفرات وانتصر على أمير نهرين " ص ٥٠٧ . الجزء الرابع . مصر القديمة .

يشير ولسن إلى ما فعله اللنبى عام ١٩١٨ فى الحرب العالمية الأولى عندما دفع بخيالته فى ممر عرونا خلف الأتراك المنهزمين . كما يشير إلى ما فعله مونتجمرى فى الحرب العالمية الثانية ضد الألمان .

ولقد قام تحتمس طوال عشرين سنة بست عشرة حملة .. حتى أصبحت مصر تسيطر عسكريا .. من الجنوب عند التقاء النيلين الأزرق والأبيض .. إلى الشمال حتى ما بين النهرين دجلة والفرات .. وخضعت.. ودفعت الجزية ممالك نهرين وأشور وبابل وجزيرة قبرص . وكان القائد تحوتي الملقب بحاكم الأقطار الشمالية يعد الجزر التى تقع فى بحر ايجه من الممتلكات التى تحت سلطانه . ولنقرأ من المتن الذى كتبه المؤرخ الفرعوني عن الحملة الثامنة فى العام الثالث والثلاثين من حكم تحتمس:

- إمداد الموانئ – جزية لبنان – حصاد بلاد زاهي : تأمل ! كانت هذه الموانئ تمد بكل شئ مما يجبى لها على حسب ما فرض سنويا على أمراء لبنان سنويا .
- جزية بلاد سنجار (بابل) : جزية بلاد سنجار س + ٤ دبنات من اللازورد الحقيقى وأربعة وعشرون دبنا من اللازورد الصناعي، ولازورد بابلى ..
- جزية بلادخيتا العظيمة : جزية بلاد خيتا هذا العام ثماني حلقات من الفضة زنتها أربعمئة وواحد دبنا (أي ٩٧,٧٤ رطلا) هذا إلى قطعتين كبيرتين من حجر أبيض ثمين وخشب تاجو .. " ص ٤٣٨ . الجزء الرابع . مصر القديمة .

ونقرأ فى المتن عن الحملة التاسعة فى السنة الرابعة والثلاثين من حكمه ، فضلا عن جزية بلاد رتنو (سوريا) وغيرها من البلاد جزية بلاد قبرص " : جزية أمير قبرص هذه السنة : مئة وثمانية قوالب من النحاس النقى وسبيكة من النحاس زنتها ألفان وأربعون دبنا ، كذلك

قوارب قصدير ، وألف ومئتا قطعة من القصدير وعشرة ومئة دبن من اللازورد وسن فيل واحد ، وقطعتان من خشب تاجو " .ص ٤٤٢ . الجزء الرابع . مصر القديمة .

وكان من الطبيعى أن تتغنى مصر التى أصبحت مرهوبة الجانب بتحتمس الثالث .

من قصيدة وضعت حوالى ١٤٧٠ ق م ، نقشت على لوحة من الحجر أقيمت فى معبد آمون ، يقول الشاعر على لسان آمون رع رب الكرنك محدثاً تحتمس الثالث :

لقد حضرت لأجعلك تتمكن من أن تدوس بالقدم عظماء فينقيا

وأجعلك تشتت شملهم تحت قدميك فى ممالكهم

وأجعلهم يشاهدون جلالتك كرب الشعاع

عندما تضئ فى وجوههم بوصفك صورتي

لقد حضرت :

لأمكنك من أن تطأ أولئك الذين فى آسية

وتضرب رؤساء " عامو "

أجعلهم يشاهدون جلالتك مدججاً بدرعك

حينما تقبض على آلات الحرب فى عربتك " . ص ١٨٧ . الجزء الثامن عشر . مصر القديمة .

وألهمت انتصارات تحتمس الخيال المصرى ، فأبدع القصص إلى جوار الشعر . نذكر منها قصة الاستيلاء على يافا :

لقد دون تحتمس الثالث كل حروبه على جدران معبد الكرنك وعلى صحائف أثرية ، ولم يرد فيما دونه أية إشارة إلى حوادث هذه القصة ، لكن شخصياتها لها أصل تاريخي ، أما ما نسب لها من أعمال فهو من إبداع الخيال .

تحوتي القائد أرسله الملك للاستيلاء على يافا ، ولما استعصت عليه لجأ إلى الحيلة .. أغرى أمير المدينة ليخرج إليه لمحادثته .. ولما فعل

ضربه بعصا تحتمس المسماة " الجميلة " والتى أراد مشاهدتها ، فسقط مطروحاً أمامه . عندئذ أحضر تحوتي خمسمئة سلة ، ووضع فى بعضها مئتى جندي مصرى مكبلين بالأغلال . وأخبروا سائس أمير يافا أن يذهب لسيدته ويقول لها أنهم أسروا تحوتي وزوجته وأطفاله ، وبالفعل يذهب السائس ، ويفعل ما يريدون ، فتأمر السيدة بفتح أبواب الحصون ، عندئذ فك الجنود حاملوا السلال الأغلال عن زملائهم ، واندفع آخرون من الحصون ، واستولوا على المدينة .

هذا وتجدر ملاحظة الشبه بين عصا تحتمس وعصا موسى .. وكذا وضع الجنود فى السلال ووضع على بابا الأربعين حرامي فى سلال لاقتحام بيت شيخ المنسر ، وكذا حصان طروادة عند الأغريق ، الملئ بالجنود ، الذين استولوا على المدينة بالحيلة أيضا .

وبعد موت هذا القائد المصرى العظيم ، عادت الممالك التى أخضعها إلى التمرد بمؤازرة الهكسوس ، فقام ابنه أمنحتب الثاني بحملتين على فلسطين وسوريا ، وعبر نهر الفرات .

ولقد سجل حروبه فى لوحتين ، عثر عليهما فى الكرنك وفى خرائب منف . ونطالع فى اللوحتين المدن والبلاد التى أعاد فتحها والسلالات التى أخضعها ، والجزية المقدمة له والغنائم التى حصل عليها ، وبعد عودته توافدت رسل السلام من البلاد الواقعة بعد نهر الفرات ، ولم يفتحها . ونقرأ فى المتن المصرى :

" ولما سمع أمير (نهرين) وأمير بلاد (خاتي) وأمير (سانجار) بالانتصارات العظيمة التى أحرزها جلالته ، حمل كل واحد منهم هدايا الود والمصافاة لرب كل الأراضي الأجنبية ، وقد وطدوا العزم على أن يطلبوا إلى جلالته أن يمنحهم نَفس الحياة كما كان يفعل والد آبائهم ، وقالوا : لقد حضرنا بهدايا إلى البلاط يا بن رع يا أمنحتب يا أيها الإله ، وأمير هيلوبوليس ، ويا أمير الأمراء ، ويا أيها الأسد الهصور ، وبذلك أبعد الخوف من هذه البلاد إلى الأبد " . ص ٦٦٦ و ٦٦٧ . الجزء الرابع. مصر القديمة .

ولقد بلغ عدد الأسرى الذين ساقهم إلى مصر تسعين ألف أسير ، وساق معهم الأمراء والعظماء . هذا ويدلنا نقش فى إحدي مقابر رجال عصره فى جبانة " شيخ عبد القرنة " على الأقاليم التى سيطر عليها . " فقد مثل على أحد جدران هذا القبر الفرعون جالسا على عرشه ، وقد نقش حول قاعدة هذا العرش أسماء أهالى واحات (لوبيا) وبلاد (كوش) وبلاد (فينيقيا) و (نهرين) و (سوريا) وبلاد (مالوص). ص٦٧٨ . الجزء الرابع . مصر القديمة .

وبعد حملة أمنحتب الثاني الأخيرة ، اختفى ذكر الهكسوس من التاريخ إلى الأبد . وأدركت مصر (الأمر الذى سيلازمها عبر العصور) أن الدفاع عن حدودها الشمالية ، يبدأ من جبال طوروس فى تركيا ، وأن الدفاع عن حدود مصر الجنوبية ، يبدأ من وسط أفريقيا وأنها لا تستطيع أن تغض الطرف عما يحدث فى الأراضى المتاخمة لحدودها حتى هاتين المنطقتين .

وأعقب هذه الانتصارات الحاسمة ، تقدم مصر فى مختلف العلوم والفنون وشهدت نهضة اقتصادية كبيرة ، وأصبحت أعظم قوة عسكرية فى العالم القديم ، مكنتها من الاحتفاظ باستقلالها لمدة ألف عام متصلة ، ومنذ القرن السادس عشر قبل الميلاد ، حتى بداية القرن الحادي عشر قبل الميلاد سيطرت مصر على كل العالم المتمدن ونشرت علومها وحضارتها فى الأقطار التى كانت تحت سيطرتها أو على اتصال بها .

المراجع ..

١- مصر القديمة – سليم حسن – الجزء الرابع – مكتبة الأسرة عام ٢٠٠١ .

٢- مصر القديمة – سليم حسن – الجزء السابع عشر – مكتبة الأسرة عام ٢٠٠٠ .

٣- مصر القديمة – سليم حسن – الجزء الثامن عشر – مكتبة الأسرة عام ٢٠٠٠ .

الثورة ضد الفرس

عشية قدوم الفرس إلى مصر ، كانت البلاد تعاني من رجال الدين الذين كان همهم جمع المال والسلطان فى أيديهم ، كما كان للسلالات الأجنبية التي تغلغلت فى البلاد والجنود المرتزقة الذين استجلبهم الملوك أكبر الأثر فى ضياع الإمبراطورية المصرية . فلم تكد تنتهي الأسرة الثانية والعشرون ، وهي من أصل ليبيى استوطن مصر عشرة عقود ، حتى انقض على مصر الكوشيون (السودانيون) من الجنوب ، وكانت البلاد يحكمها ثمانية عشر ملكاً فى وقت واحد فى أماكن متفرقة . وفى تلك الفترة ظهرت دولة أشور الفتية ، ووصلت فتوحها حتى أبواب مصر ، ولم تجد صعوبة فى طرد الكوشيين منها والاستيلاء عليها . ولم يدم ذلك أكثر من ثلاثة وثمانين عاما . حتى جاء الملك بسميتك مؤسس الأسرة السادسة والعشرين وأجلى الآشوريين ، وقفزت البلاد فى عهده نحو التقدم من جديد . وفتح بسمتيك الباب لطلاب العلم والمعرفة . ومنذ منتصف القرن السابع حتى نهاية القرن الخامس قبل الميلاد كانت مصر الينبوع الذى استقى منه الشعب اليوناني كل علومه وفنونه ، وهذه العلوم والفنون هي التى نشرها الإغريق بدورهم فى كل أنحاء العالم المتمدن ، وبُني على أساسها العلم الحديث .

لكن بسمتيك ارتكب غلطة بعض أسلافه ، فاستقدم الجنود المرتزقة ، من بلاد الإغريق — هذه المرة — ومن كاريا بآسيا الصغرى ، لتكوين جيش قوى يدافع عن مصر فى وجه الممالك الفتية الناشئة التى ظهرت فى العالم وقتئذ ، ولم يحذ حذو ملوك مصر العظام الذين

اعتمدوا على المصريين فقط فى فتوحاتهم وفى حفظ النظام سواء فى مصر أو فى ممتلكاتها .

وفى نهاية عهد أحمس الثاني ظهرت دولة الفرس ، وكانت مصر وقتها خارجة من حروب داخلية أنهكت قواها وأضعفت قوتها الحربية . وانتهز الفرس الفرصة واستولوا على مصر عام ٥٢٥ ق م .

ولقد استعد قمبيز ملك الفرس لهذه الحرب جيداً ، فبدأ بتجريد أحمس الثاني ملك مصر من حلفائه ، فتحالف مع ملك جزير ةساموس وملك فينقيا (لبنان) ، وضم أسطولى حليفيه إلى أسطوله ، ونجح قمبيز فى الحصول على مساعدة بدو خليج السويس . كما " ضمن وجود قاعدة قوية ينقض منها على الحدود المصرية ، بالتصريح لليهود ببناء معبد أورشليم (فى فلسطين) ، وفضلا عن ذلك نجد أن الفرس قد اكتسبوا إلى جانبهم عواطف الجنود المرتزقة اليهود الذين كانوا فى خدمة الفرعون " . ص ٢ . الجزء الثالث عشر . مصر القديمة.

وساعد قمبيز هرب فانس أحد رؤساء الجنود المرتزقة ، الذى كان فى خدمة أحمس الثاني ، وانضمامه إلى معسكر الفرس ، وإطلاعهم على الترتيبات التى أعدها المصريون لمقاومته .

وانتهز قمبيز فرصة موت أحمس الثاني ، وتولى ابنه بسمتيك العرش ، فأرسى أسطوله فى عكا ، وزحف بجيشه . وتقابل الجيشان المصرى والفارسى فى مدينة الفارما المصرية ، وتغلبوا على مقاومتها وتقدموا إلى مدينة عين شمس ، وأمكنهم اجتياحها ، وتقدموا إلى مدينة منف (البدرشين وميت رهينة حاليا) التى احتمي فيها الملك بسمتيك الثالث ، وسرعان ما سقطت فى أيدي الغزاة .

وتكشف لنا بردية آراميه عثر عليها فى مصر ، يرجع عهدها إلى القرن الخامس ق م ، أن الغزاة ضموا بالإضافة إلى الفرس سلالات من الخوارزميين والكسبيين ، والساميين الذين يحملون أسماءً بابلية وآرامية ويهودية .

وتابع الفرس السير إلى مدينة سايس " وعندما دخل قمبيز قصر أحمس الثاني أمر فى الحال بأن يحضر جسم أحمس الميت من

ضريحه، وعندما تم له ذلك أعطي الأوامر بجلده ونتف شعره ووخذه وانتهاك حرمته بكل طريقة ممكنة ، ولكنهم عندما أخذ منهم التعب كل ما أخذ من هذا العمل (لأنه لما كان الجسم محنطاً فقد قاوم ولم يمزق أرباً) أمر قمبيز بحرقه " ص ٧٢ مصر القديمة — الجزء الثالث عشر .

ولقد خالف قمبيز بذلك العقيدة الفارسية ، التى تعد النار إلهاً ، وحرق الميت تعده كفراً ، لأنه ليس من الحق أن نقرب جسم إنسان ميت لإله .

كما أمر قمبيز بتعذيب الكهنة ، وقَتَل المصريين فى المعابد ، وفتَح المدافن القديمة ، ومثل بجثثها ، وأحرق التماثيل .

وسادت البلاد حالة من الفوضى .

الثورة الأولى :

فى آخر عهد الملك الفارسى دارا الأول . قامت حركة وطنية لطرد المحتل . وكانت البلاد محصنة بحاميات فارسية قوية من بلدة ماريا (على مقربة من الاسكندرية) حتى بلدة الفنتين (أسوان) . وكانت حامية منف تتألف من الفرس الذين يحملون رتب الضابط ، إلى جانب عناصر أخرى ، منها الجنود المرتزقة من اليهود الذين كانوا يقطنون مستعمرة فى الفنتين .

وانتهز المصريون فرصة انشغال الفرس فى الحرب مع أثينا ، وهزيمتهم فى موقعة ماراتون ، واستطاع الثوار بزعامة " خباباشا " انتزاع مصر من أيدي المحتل ، وقبض هذا الرجل على ناصية الأمور فى منف ، وأعلن نفسه ملكاً ، ورصد وقفاً لمعبد " بوتو " لإرضاء آلهة هذه المدينة .

وجهز أكزركزس الأول ملك الفرس جيشا كبيراً ، زحف به من فارس ، وأعاد فتح مصر وبطش بالثوار بعنف . وبعد أن استقر له الأمر ، غادرها تاركاً أخمينيس حاكما عليها .

الثورة الثانية :

ضيق الفرس الخناق على المصريين ، لدرجة أن الوظائف الصغيرة التي لا أهمية لها ، قد أصبحت في يد الفرس .وتدهورت التجارة بشكلٍ كبير ، ومُنعت الأوقاف عن المعابد . وجهز أخمينيس أسطولاً مؤلفاً من مئتي سفينة بالمقاتلين المصريين ، لمؤازة حملة فارس على بلاد الإغريق عام ٤٨١ ق م . وقد أقحمت مصر في هذه الحرب على كره منها .

وعلى أثر موت أكزركزس وتولى خلفه أرتكزركزس عرش فارس الذى انشغل فى الحرب مع اليونان ، اشتعلت الثورة في الدلتا ، عام ٤٥٦ ق م بقيادة الأمير إيناروس بن بسمتيك ومصرى آخر من بلدة سايس يدعي أمرتي (أمير تاوس) وتمت السيطرة على الوجه البحرى، وطرد جباة الجزية من الفرس . وانتهز الأثينيون الفرصة لإضعاف عدوهم الأكبر ملك فارس وجهزوا أسطولاً قوامه ثلاثمئة سفينة طبقا لرواية ديودور الصقلى ، ومئتي سفينة طبقا للمؤرخ ثوسيديد ، وبالفعل أبحر الأسطول المزود بخمسين ألف مقاتل من قبرص ، وتمكن من الإبحار فى النيل ، لينضم إلى قوات إيناروس .

وفى عام ٤٥٩ ق م التقى جيش أخمينيس شطرب الفرس فى مصر (الحاكم) ، جيش إيناروس في بابرميسى عاصمة مقاطعة فى الدلتا ، واستطاع إيناروس هزيمته ، وقتله ، وأرسل جثته إلى شقيقه ملك فارس .

وتقهقرت فلول الفرس إلى مدينة منف ، وحاصرهم المصريون وحلفاؤهم ، فاضطروا إلى التخلى عن جزء منها للمصريين ، وتحصنوا فى قلعتها المعروفة باسم " الجدار الأبيض " وحاول أرتكزركزس " عبثا أن يغرى مملكة اسبرتا (اسبرطة) بالقيام بمهاجمة عدوتها ومناهضتها أثينا انتقاماً لمساعدتها لمصر ، ولجعل أثينا تسحب نجدتها من مصر . ولكنه لما خاب مسعاه ، اضطر إلى إرسال جيش جديد قوى إلى دلتا النيل ، وقد بولغ فى عدد هذا الجيش إذ قدر بنحو ثلاثمئة ألف مقاتل بقيادة شطرب سوريا المسمي مجابيز ، وقد كان هذا الجيش

يعتمد على أسطول يشد أزره قوامه ثلاثمئة سفينة يقودها أرتباز " ص ١١٢ . الجزء الثالث عشر . مصر القديمة.

وكان مجابيز هو رسول ملك الفرس إلى مملكة (اسبرتا) ،وكان قد حمل مبلغاً كبيراً من المال لإغرائها على غزو (أتيكا) ، ولم يفلح في مهمته فقد كانت العلاقة وثيقة بين مصر وبلاد اليونان خاصة أثينا واسبرطة : " سواء أكان ذلك من ناحية المد الحربى الذى كانت تمدها به هاتان البلدتان لمواجهة الخطر الفارسي أم من جهة المساعدة المالية والاقتصادية التى كانت ترسلها مصر إلى أثينا واسبرتا ، وذلك لتنفيذ المشروعات اليونانية المناهضة لملك الفرس العظيم عدو اليونان اللدود ، هذا ونرى من جهة أخرى أن الإغريق كانوا أحيانا يرسلون إلى بلاد الفرس قواداً وجنوداً مرتزقة لينضموا إلى صفوف الجيش الفارسى لمحاربة مصر وإضعافها ، ومن ثم نرى أن الإغريق كانوا لا يسيرون حسب سياسة موحدة مع الفرس على الرغم من شدة كرههم لهم " . ص ١٤٢ . مصر القديمة .الجزء الثالث عشر .

ودارت معركة عنيفة فى منف ، اضطر بعدها المصريون وحلفاؤهم للتخلى عنها ، والتجأوا إلى جزيرة فى النيل تسمي بروزوبيتيس ، التى قاومت كل الهجمات لمدة عام ونصف . وتمكن مجابيز من تحويل فرع النيل ، وردم المجرى الذى تقع به الجزيرة ، وبذلك استولى على الأسطول الذى أصبح يقف على اليابسة ، وهاجم الفرس الجزيرة أرضا.

وجُرح ايناروس ووقع أسيراً ، وسيق إلى سوس ، حيث قتله أرتكزركزس بوضعه على خازوق .

ومع ذلك ظلت الحرب دائرة بين الفريقين ، وقد ارتد أمير تاوس (أمرتي) شريك ايناروس فى الثورة ، إلى مناطق فى الدلتا صعبة المنال ، واستطاع الحفاظ على استقلال الدلتا ، بينما كان الفرس يسيطرون على الوجه القبلى . وأعلن أمير تاوس نفسه ملكا على مصرٍ ، وأخذ يشن حرب عصابات على الفرس . لكن الأمور هدأت قليلا ، خاصة بعد عقد صلح كالياس عام ٤٤٨ ق م بين أثينا والفرس ، وكان من شروطه ، عدم تدخل أثينا فى صالح مصر ، أو العمل على استقلالها .

وأظهر حاكم الفرس الجديدة فى مصر تسامحا ، فنصب تاميراس بن ايناروس وبوزيرس ابن أمير تاوس على رأس الحكومة التى كان يسيطر عليها والداهما .

ورغم هذا التسامح فلم تخضع مصر بأكملها للفرس ، يدل على ذلك ، حسب ما جاء فى (بلوتارخ) أن مصرياً أرسل أربعين ألف مكيال من الغلال ، وفى رواية أخرى ثلاثمئة ألف مكيال ، فى هذا الوقت على أثينا .

ويحتمل أن يكون ذلك نظير المساعدة الحربية التى أرسلتها أثينا إلى مصر أثناء ثورة الدلتا .

الثورة الثالثة :

نجح أمير تاوس (أمرتي) فى الحفاظ على استقلاله عدة سنوات حتى مات ، وعندما خلفه ابنه بوزيريس ، كان لعبة فى يد الفرس ، وبعد تولى دارا الثاني عرش فارس ، اشتعلت الثورة — مجدداً — فى مصر بقيادة أمير تاوس الثاني ، ومن المرجح أنه حفيد أمير تاوس الأول ، وقد بدأت هذه الثورة عام ٤١٠ ق م ، وهاجم الثوار المستعمرة اليهودية فى الفنتين (أسوان) وهدموا معبدهم ، وذلك لموالاتهم للفرس .

وقد استمرت هذه الثورة ست سنوات ، توجت عام ٤٠٤ق م بالاعتراف باستقلال مصر عن الفرس ، الذين سيطروا عليها حوالى ثلثى قرن من الزمان . وأسس أمير تاوس الثاني الأسرة الثانية والعشرين.

التخلى عن سياسة الدفاع :

حاول الفرس غزو مصر مرة أخرى فى عهد الملك نقطانب الأول مؤسس الأسرة الثلاثين ، لكن الجيش المصرى ألحق بهم هزيمة فادحة ، بسبب الروح الوطنية العالية للجنود المصريين ، ولما كان الغزو قد تم وقت الفيضان ، فقد استغل المصريون ذلك ، وكان من نتيجة هذا النصر ، أن قامت الثورات ضد الفرس فى سوريا وآسيا الصغرى وقبرص وفينيقيا .

وتخلى خلف نقطانب الأول الملك تاخوس عن سياسة الدفاع ، وجرد جيشا ، ساقه إلى آسيا لانتزاع أملاك الفرس وضمها إلى مصر . لكنه وضع على رأس جيشه البرى الإغريقى خبرياس ، والذى كان مستشاره المالى أيضا . وكان قد فرض ضرائب فادحة على الشعب المصرى، وجرد الكهنة من ممتلكاتهم . ورغم انتصاراته على الفرس فى الشام ، فقد تآمر الجيش عليه فى ساحة القتال ، وكذا الكهنة فى داخل مصر، وكانت النتيجة عودة الجيش المصرى . وفى عهد الملك نقطانب الثاني جهز الفرس حملة كبيرة، وكانوا قد صفوا حساباتهم مع الإغريق ، وتقدموا إلى الشام فى الطريق إلى مصر . وصلت الحملة إلى صيدا وأرسل نقطانب الثاني أربعة آلاف محارب من المرتزقة اليونانيين لمساعدة ملكها ، وحققت نصرا على الفرس ، لكن تنيس ملك صيدا خان رؤساء المدينة وسلمهم إلى الفرس ، ولعب الدنيار الفارسى بعقول المرتزقة اليونانيين.

ويئس أهل صيدا من الدفاع عنها ، بعد أن ذبح الفرس ممثليهم وعددهم خمسمئة رجل فأشعلوا النار فى بيوتهم وفى أنفسهم ودخل أرتكزركزس الثالث المدينة فوجدها خرابا . وتقدم الفرس إلى مصر، وبعد حرب طاحنة ، استولوا عليها،وفر الملك إلى النوبة عام ٣٤١ ق م.

لكن المقاومة لم تخمد ، ونجحت فى طرد الغزاة عام ٣٣٨ ق م . وعاود الفرس الغزو عام ٣٣٦ ق م لكنهم لم يمكثوا سوى أربع سنوات ، فقد اجتاح الإسكندر المقدوني بلاد فارس ، وجاء إلى مصر عام ٣٣٢ق.م فاستسلم الحاكم الفارسى ، وسلمها له دون قتال .

المرجع :

* مصر القديمة – سليم حسن – الجزء الثالث عشر .

المنصورة تصنع التاريخ

" في مؤتمر ، عُقد فى كلير موت بفرنسا فى الفترة مـن ١٨-٢٨/ ١١ / ١٠٩٠م، حث البابا إيربان سامعيه علي مساعدة العالم المسيحي فى الشرق ، الذي يستغيث من أجل المساعدة ، والأتراك يتقدمون إلي قلب الأراضي المسيحية ويسيئون إلي السكان ، وركز علي القداسة الخاصة للقدس ووصف ألوان المعاناة التـى يعانيـها الحجاج فى سفرهم إلي هناك " ص ١٩٨ رانسيمان * .

وعلينا أن نعود إلي الوزاء قليلاً ، لنعرف ، من أين نبع اهتمام منطقة ، بما يحدث فى منطقة أخري ، أو ما نسميه اليوم بالعالمية .

يقول الدكتور ، سليمان حزين فى كتابه " حضارة مصر " ص ٤٨ : " قبل عهد الإسكندر ، كانت هناك عدة مناطق لكـل منـها حضارتـها الخاصـة ، فـى الصيـن والهند ، والشرق الأدني ، ومصر ، وبلاد الإغريـق ، وكـانت كل هذه المنـاطق تكون عالماً حضارياً متميزاً ، لا يتصل اتصالاً مباشر ، إلا بالعالم المجـاور لـه ، كاحتكاك مصر بالشـرق الأدنـي ، أو بـلاد الإغريـق بمصـر ، أو الشـرق الأدنـي ببلاد الإغريق ، فلما جاء الاسكندر ، وقام بحملته التاريخية من بلاد الإغريق إلي الشرق الأدني ، ثم مصر ، ثم حدود برقه ، ثم عاد إلي مصر ، ومنها إلي الشرق الأدني وإيران وتركستان الغربية وحدود تركستان الصينية ثم اتجه إلـي الـهند ثـم عاد إلي الشرق الأدنى وقضي نحبه ، كانت هذه أول حملة احتكـت فيـها منـاطق

(*) تاريخ الحملات الصليبية – ستيفن رانسيمان .

الحضارة المختلفة بعضها ببعض احتكاكا مباشرا ، فتقاربت أجزاء العالم وظهرت العالمية (أو بعض بوادرها علي الأقل) ووضعت أسس الاتصال العالمي ، فُتحت الطرق وسعى عليها التجار والملاحون في البر والبحر ، وتبادل الناس السلع والأفكار ، بين مناطق لم يكن بعضها يعرف بعضا قبل عهد الإسكندر إلا بطريقة طارئة وغير مباشرة . ولعل من نتائج ظهور العالمية أن اتجه الفكر الديني في الشرق الأدني اتجاها جديداً . فقبل عهد الإسكندر لم يكن الناس مهيئين لأن يتقبلوا الأديان " التبشيرية " التى تفرض علي من يؤمن بها إبلاغ الرسالة إلي غير المؤمن ، وعلي هذا جاءت اليهودية غير تبشيرية ، ولم تنتشر في العالم (ولو أن اليهود أنفسهم قد انتشروا في الأرض) ، علي حين جاءت المسيحية والإسلام بعد الاسكندر دينين تبشيريين ، دعا كل منها إلي نوع من الأخوة العالمية ، فنقله أنصاره إلي الشرق أو الغرب ، أو الاثنين معا " وانتشرت المسيحية في أوروبا . ولعبت السياسة دوراً هاما في جذب اهتمام أوربا بمنطقة الشرق الأدني ومصر ، فالخليفة هارون الرشيد كان يبحث عن حليف يؤازره ضد بيزنطة .

" في نهاية القرن الثامن الميلادي أظهر شارلمان الذي كان علي وشك أن يتوج امبراطورا في روما ، اهتماما خاصا بإصلاح الأماكن المقدسة ، ولقيت اهتماماته ترحيبا كبيرا ، إذ أن الخليفة هارون الرشيد الذي سره أن يجد حليفا ضد بيزنطة شجعه علي إقامة مؤسسات في القدس وإرسال العطايا لكنائسها ، ولفترة من الزمان حل شارلمان محل الإمبراطور البيزنطي ، وكان العاهل الذي تحمى قوته الأرثوذكس في فلسطين .

وأقيمت الصلوات اللاتينية في كنيسة القديسة ماري الخاصة باللاتينيين ، وخدمت الراهبات اللاتينيات في كنيسة القبر المقدس .

ورغم انهيار امبراطورية شارلمان في عهد خلفائه ، إلا أن الغرب لم ينس تلك القصة ، وبالغت الأساطير والمأثورات في رواياتها ، وسرعان ما انبثق الظن أن شارلمان قد أضفي علي الأماكن المقدسة حمايته القانونية ، وقيل أنه قام بالحج إلي هناك . وأعلنت أجيال الفرنجة المتأخرَة حقها في أن تحكم القدس " ص ٦٨ـ رانسيمان .

ولعل هذا ما جعل البابا إيربان يحث سامعيه علي الذهاب إلي الشرق في حملات مسلحة ، ولكن ، في الحقيقة كان دافعه اقتصاديا محضا ، كان المبدأ المستقر في النظام الإقطاعي بأوروبا أن يرث الابن الأكبر الأرض والثروة ، وعليه أصبح باقي النبلاء رغم ألقابهم فقراءً ، فجاءت الدعوة للذهاب إلي الشرق فرصة ،

لإنشاء دوقيات وإمارات ، يعوضون بها ما فقدوه فى بلادهم . السبب الثاني هو هجرة قبائل الفرنك (الفرنجة) . من شمال أوروبا إلي جنوبها ، واستقرارهم فى فرنسا وإيطاليا وأسبانيا . بل أن الغرب وجميع القبائل البربرية من وراء البحر الأدرياتيكي يتحركون فى كيان واحد عبر أوربا .

وكان من ضمن المبشرين بالحرب الصليبية الراهب بطرس ، المشهور ببطرس الناسك .

ويرجع رانسيمان نجاحه لأسباب عديدة : " إذ كانت حياة الفلاح فى شمال غرب أوربا حياة قاسية غير آمنة . وأثناء الغزوات البربرية وغارات أهل الشمال ، لم تعد أراض كثيرة صالحة للزراعة ، فقد تهدمت السدود وطغي البحر والأنهار علي الحقول . ودائما ما كان اللوردات يعارضون قطع أشجار الغابات لأنهم يمارسون فيها رياضة الصيد ، وكانت القرية التى لا تحميها قلعة أحد اللوردات هدفا لأن يسرقها أو يحرقها الخارجون علي القانون أو الجنود المشتركون فى الحرب الأهلية المحدودة . وسعت الكنيسة إلي حماية فقراء الفلاحين وإلي إنشاء المدن المسورة فى الأرض الخالية ، إلا أن مساعيها لم تكن منتظمة وغير مجدية " ص ١٩٨- رانسيمان .

" كما كان تملك الأرض فى انهيار ، ولم يكن هناك نظام آخر يحل محله . وعلي الرغم من الاختفاء الفعلي لطبقة عبيد الأرض ، كان الناس مرتبطين بالأرض بالتزامات لا سبيل إلي الهرب منها بسهولة ، بينما عدد السكان يتزايد ، وليس من الممكن تجزئة الحيازات فى القرية إلا فى حدود معينة . واستناداً لرواية روبرت الراهب ، قال إيربان فى كليرمونت : (فى هذه الأرض تستطيعون بالكاد إطعام السكان ، وهذا هو السبب فى أنكم تستفذون نتاجها ثم تثيرون حروبا لا نهاية لها وتقتلون بعضكم البعض) . وكانت السنوات الأخيرة تتصف بصعوبة خاصة ، إذ شهد عام ١٠٩٤ م فيضانات وأوبئة ، أعقبها جفاف ومجاعة، فكانت لحظة بدت فيها الهجرة شيئا جذابا للغاية " ص ١٩٩ -رانسيمان .

وكانت المستعمرات اليهودية قد أنشئت لقرون مضت علي طول الطرق التجارية فى أوربا الغربية ، وكان رؤساء الأساقفة يحابُونهم ويضفون الحماية علي من وراءه نفع منهم ، " علي عكس الفلاحين وفقراء المدن الذين تزايدت حاجتهم إلي المال بعد أن حل الاقتصاد النقدي محل اقتصاد الخدمات ، فغرقوا فى الديون أكثر فأكثر ، وزاد استياؤهم من اليهود أكثر فأكثر ، بينما رفع اليهود أسعار الفائدة عوضاً عما يفتقدونه من الأمن القانوني ، وكانوا كلما ساندهم الحكام

المحليون يحققون أرباحاً فاحشة " . ص ٢٢٨ ـ رانسيمان .

وبالإضافة إلي ذلك ، كانت هناك حركة للإصلاح الكنسي في أوربا ، لسيادة الأفكار اللاهوتية ، واستبدال بعقوبات الملك عقوبات كنسية ، ونبذ العنف خاصة فى فرنسا ، ووقف الحرب بين الإقطاعيين ، حيث كان الرهبان ضالعين فى هذه الحروب ، ولهم فرق مسلحة ، خاصة ، ودعا البابا ايربان لتحرير المسيحيين بشكل عام " نظر البابا ايربان إلي الحملة الصليبية فى الشرق كجزء من حركة أكبر لتحرير المسيحيين ، ولم يفرق بينها وبين حركة استرداد الأندلس من أيدي المسلمين " ص ٢٦ ـ ريلي * .

" ولم يحدث قبل عهد ايربان أن أعلن أي بابا حربا مقدسة نيابة عن المسيح ، وتمت معاملة المشاركين فى تلك الحرب ، معاملة الحجاج إلي بيت المقدس ، ولكنهم حجاج يؤدون القسم ويتمتعون بالغفران " ص ٣٦ ـ ريلي . وأصبح غفران ايربان بمثابة إعلان رسمي عن أن الحرب الصليبية هي الفرصة السانحة لإعلان التوبة ، وكفارة عن كل ما تقدم من ذنوب ، ومنح البابا غفرانه لمن أراد البقاء فى الأندلس لمحاربة المسلمين هناك .

وتوالت حملات أوربا الاستعمارية علي الشرق ، وسميت بالصليبية ، لأن المشتركين فيها وضعوا علامة الصليب علي أكتافهم لتمييزهم عن غيرهم . مع العلم أن المؤرخين العرب ، أسموها حملات الفرنجة نسبة إلي قبائل الفرنك أو الفرنج الجرمانية ، المشتركة فيها . وأسست هذه الحملات بعض الإمارات فى الشام ، واستولت علي القدس وانشأت مملكة بيت المقدس . لكن الإغارات العربية عليها لم تتوقف . وكان الأسطول المصري يسيطر دوما علي الساحل ، ولاتني الجيوش المصرية تزحف إلي فلسطين وسوريا . وأدرك قادة هذه الإمارات أنهم لن يتمكنوا من البقاء ، دون السيطرة علي مصر .

فمع ظهور العالمية ، التى أشرنا إليها سابقا ، برزت قيمة موقع مصر الجغرافي ، واتجهت الأنظار من أهل الغرب وأهل الشرق نحو أرض الزاوية " مصر " ، واهتم الناس بشئون هذا الموقع الجغرافي الذي يتحكم فى طرق المواصلات بين الشرق والغرب وبين الشمال والجنوب ، " فتحكمت مصر فى طرق التجارة ، وأصبحت مفتاح الاتصال بين الشرق والغرب ، ولاسيما فى عهد المماليك ، كما غدت مصر أيضا مركز الثقافة الإسلامية ، وقامت القاهرة في العهد الإسلامي ، بدور يشبه من بعض الوجوه ما قامت به الاسكندرية فى العهد الإغريقي

---

* الحملة الصليبية ـ جوناثان ريلي .

الروماني ، فكأن الموقع الجغرافي الواحد قد استغلته ثقافتان مختلفان في عصرين مختلفين ، وكل ما حدث أن التوجه الثقافي لمصر قد اختلف ، فبعد أن كان نحو أهل الشمال والغرب في عهد الإغريق والرومان ، أصبح نحو الشرق والجنوب الشرقي في العهد العربي " ص ٥١ د. سليمان حزين .

ومع أن الحروب الصليبية بدأت في أواخر القرن الحادي عشر ، واستولي الصليبيون علي بيت المقدس علي ١٠٩٩م وكذا بيروت وعكا وحيفا ، إلا أنهم لم ينتبهوا إلا مؤخراً بعد أن هزمتهم مصر بزعامة صلاح الدين الأيوبي في حطين عام ١١٨٧ م ، مستعينا بمكانة مصر ومواردها الهائلة ، إلي الخطر المصري ، " لذلك لا عجب إذا أفاق الغرب الأوربي في أوائل القرن الثالث عشر أمام حقيقة كبري ، هي أن مفتاح بيت المقدس موجود في مصر ، وأنه إذا أراد الصليبيون أن ينعموا بحياة آمنة في بلاد الشام فعليهم أن يسيطروا علي مصر أولا " ص ٩٣ ــ الأيوبيون . د. عاشور * .

ونضيف ، أنه لا أمن لمصر ، أيضا إلا إذا كان الشام يخلو من أي قوات أجنبية ، أو وجود دولة معادية .

وفي الحقيقة ، فقد حاول الصليبيون في الشام غزو مصر ، قبل القرن الثالث عشر ، ففي أواخر القرن الحادي عشر قام جودفري دي بوايون بمحاولة عام ١٠٩٩م ، ثم أعقبه ، أخوه بلدوين أول ملوك مملكة بيت المقدس فغزا مصر عام ١١١٦ م ، وفي عام ١١٥٠ ، هاجم الصليبيون غزة ، ثم سقطت عسقلان آخر المعاقل المصرية في فلسطين عام ١١٥٣ .

بعد ذلك قام ملك بيت المقدس أما لريك (عموري الأول) بحملته الأولي ، فهاجم العريش عام ١١٦١م ، ثم قام بثلاث حملات أخري انتهت عام ١١٦٩ . ورغم فشل هذه الحملات ، فلم تنقطع الإغارات عبر سيناء ، حتي وصلوا إلي بحيرة البردويل ، وحاول رينودي شاتيون أن يتحكم في حركة التجارة الدولية بين آسيا ومصر في البحر الأحمر ، وهاجم الموانئ المصرية والحجازية ، وتمكن الأسطول المصري من سحق أسطوله تماما .

وهكذا أصبح واضحا أن قوات الصليبيين في الشرق ، ليست ندا للعرب ، لذلك انعقد أمل المملكة الصليبية في بيت المقدس علي قدوم حملة جديدة من أوربا . وبالفعل أعدت الحملة الخامسة ، ولكن بينما كان هدف حملات عموري تحويل مصر إلي دولة تابعة لبيت المقدس ، أو ضمها ، فإن هدف الحملة الخامسة كان

* الأيوبيون والمماليك ــ د. سعيد عاشور .

استرداد الشرف العسكري والهيبة ، اللتين فقدهما الصليبيون فوق تراب حطين ، واعتقدوا أنه يمكن إخضاع مصر أو تحييدها وإجبارها علي الدخول في معاهدة سلام تشترط عودة المملكة الصليبية فى الشام إلي حدودها القديمة .

وهكذا جاءت الحملة الخامسة إلي مصر " كانت هناك أسباب عديدة تحفز الصليبيين علي الهبوط فى دلتا النيل بدلاً من ضفاف الأردن . وأهم هذه الأسباب الرغبه الجامحة من جانب المدن الإيطالية التجارية (الممول الرئيسي لهذه الحملة) فى السيطرة علي السوق التجارية الرئيسية فى حوض البحر المتوسط، وضرب المنافسة المصرية القوية " ص ٢٩ ـ رؤية اسرائيلية ـد. قاسم * .

وسرعان ما توافدت جموع الصليبيين علي الشام تلبية لدعوة البابوية ، وتجمعوا تحت قيادة حنادي برين ملك بيت المقدس . وجاءت الحملة إلي دمياط ، وحاول الملك الكامل سد مجري النيل ، لكنهم نجحوا فى شقه ، عندئذ أغرق المصريون عدة مراكب لتعوق تقدم السفن الصليبية في النهر ، لكنهم حفروا خليجاً ، كان يجري النيل فيه قديما ، وأجروا فيه الماء إلي البحر . وفي تلك الأثناء وصلت امدادات من قبرص وغرب أوربا ، بزعامة الكاردنيال بلا جيوس مندوب البابا . لكن دمياط ظلت صامدة أمام الحصار ، ما يقرب من سبعة عشر شهراً ، وسقطت في نوفمبر ١٢١٩ م .

وفى آخر يونيو عام ١٢٢١ م قرر الصليبيون الزحف إلي القاهرة عبر الدلتا . و كان الطريق الذي سلكوه ، عبارة عن منطقة مثلثة في الشمال الشرقي من بحيرة المنزلة (بحيرة تنيس وقتها) ويسمونها جزيرة دمياط لأن الماء يحدها من الشمال الغربي ، فرع دمياط ، ومن الجنوب الشرقي ، بحر أشموم ، ومن الشرق ، بحيرة المنزلة ، وتعترضها السدود والترع والمجاري المائية المتفرعة عن الفرع الشرقي للنيل .

وجمع القادة الناس ، وأقاموا خطا دفاعيا قبالة طلخا وعلي الضفة الشرقية للنيل ، حيث كانت توجد قرية صغيرة اسمها " جزيرة الورد " شيد الملك الكامل " منزلة " عند مفترق النيلين إلي دمياط وأشموم طناح سرعان ما أقيمت فيها القصور والدور ومساكن للجند ، وسميت " المنصورة " تيمنا بالنصر .

واستعدت الجيوش المصرية فى المنصورة لملاقاه الصليبيين الذي وصلوا إلي منطقة تفرع بحر أشمون (البحر الصغير) من فرع دمياط ، وحرصت السفن المصرية أن تتخذ مكانها في النيل لتسد الطرق أمام السفن الصليبية ، وتمنع

* رؤية اسرائيلية للحروب الصليبية ـ د. قاسم عبده قاسم .

اتصالهم بقاعدتهم فى دمياط ، وسرعان ما قطع المصريون السدود والنهر ، والقنوات مليئة بماء الفيضان ، وأصبح الصليبيون فى أرض غارقة بالماء فحاولوا الارتداد بسرعة إلي دمياط ، ولكن الملك الكامل ، كان قد أنزل عند شرمساح ، شمال شربين ، ألفي فارس ، ليقطعوا عليهم خط الرجعة .

وأصبح الصليبيون فى موقف صعب ، المياه تحيط بهم من كل جانب ، ولا يستطيعون القتال فى الوحل ، ولا يستطيعون العودة إلي دمياط ، فطلبوا الصلح فى أواخر أغسطس عام ١٢٢١ م وكان الملك الكامل يستطيع إبادتهم، لكنه ، وقد اشتهر بتسامحه ، رأي السماح لهم بالخروج من مصر ، وقيل أنه فعل ذلك خشية من حملة صليبية جديدة ترسلها أوربا، واشترط أن يبقوا لديه رهائن حتي يسلموا دمياط ، وبالفعل أبقوا لديه عشرين من قادتهم علي رأسهم حنادى برين والكاردنيال بلاجيوس . وأخيرا تم جلاء الصليبيين عن دمياط فى السابع من سبتمبر عام ١٢٢١ م .

بعدها استولي الجيش المصري علي مدينة القدس ، فى عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب فى عام ١٢٤٤ م ، استردها من أيدي الخوارزميين الذين اقتحموها فى نفس العام ، محققين انتصاراً ساحقا علي الصليبيين . واستطاع الجيش المصري، وكان قد سيطر علي دمشق من قبل ، الاستيلاء علي قلعة طبرية وعسقلان ، وانحسر الوجود الصليبي عند يافا .

وأحدث سقوط القدس دويا هائلاً فى أوربا ، وقامت البابوية بالدعوة لحملة صليبية جديدة . فاستجاب لها لويس التاسع ملك فرنسا وأخذ يستعد لغزو مصر ، فيما عرف بالحملة الصليبية السابعة ، وقد تأكدت لدي الأوربيين فكرة الاستيلاء علي مصر ، بوصفها مفتاح بيت المقدس .

فى ٢٥ أغسطس عام ١٢٤٨ م أبحر لويس التاسع ملك فرنسا من مرسيليا ، وفي ١٧ سبتمبر رست الحملة فى قبرص ، وفي ١٣ مايو عام ١٢٤٩ أقلعت الحملة ، بعد أن تزودت بالمؤن ، وكانت الحملة تضم خمسين ألف مقاتل أغلبهم من الفرنسيين ، و ١٨٠٠ قطعة بحرية ، وفى تقدير بعض المؤرخين ، حوالي ثمانية وعشرين ألف مقاتل وعدد القطع البحرية أقل من ذلك بنحو الثلث تقريبا . وكان يقود الأسطول بحارة من جنوا ، واليازنة لجهل الفرنسيين بالملاحة ، وضمت الحملة فرقة انجليزية بقيادة وليم طويل السيف حاكم مقاطعة سالسبوري، وجماعة من الرهبان الداوية ، وهم من الرهبان المحاربين ، بقيادة رئيسهم وليم دي سوناك ، تؤازرهم جماعة من الرهبان الاسبتارية .

ووصلت الحملة إلي دمياط .. التى كانت محصنة تحصينا جيدا ، ويعسكر فى

جنباتها جماعة من العرب الكنانية ، الذين اشتهروا بالفروسية والشجاعة ، للدفاع عنها ، إذا اقتحمها الفرنسيون . لكن ما أن ظهر الأسطول الفرنسي ، وبدأت طلائع الفرسان تصل إلي البر ، حتي حدث اضطراب في صفوف الجيش المصري .. ولم يوفق قائد الجيش الأمير فخر الدين يوسف ، في تنظيم صفوفه ، لملاقاة العدو ، وسرعان ما انسحب بجيشه إلي معسكر الملك الصالح نجم الدين أيوب في أشموم طناح (أشموم الرمان حاليا) .. ويقال في تبرير ذلك ، أن شائعة وصلته بموت نجم الدين أيوب ، الذي كان مريضا جداً ، وأن الأمير كان طامعا في العرش . وأهمل الجند تحطيم الجسر الذي يصل بين شاطئي النيل ، فاحتله الفرنسيون ، وانفتح الطريق إلي دمياط . وتبع الجيش ، جماعة الكنانية ، دون داع أيضا . وكان أن أمرا لملك الصالح بمعاقبة قادتهم ، واكتفي بتوبيخ الأمير فخر الدين ورجاله ، رغم أن العدو اقتحم دمياط ، دون قتال يذكر ، وهي التي صمدت أمام حملة حنادي برين الأقل عدداً وعدة . وقام أهالي دمياط بإشعال النار في دار السلاح (الزردخانه) وسوق المدينة وفي مخازنها ، حيث تكدست البضائع ، وكذلك بعض الدور الكبري ، حتي لا تقع بما فيها من الخيرات والمؤن والعتاد غنيمة في أيدي الفرنج . لم يرض الأهالي عما حدث وسرعان ما بدأوا يتعلمون فنون القتال والفروسية ، ولعلنا نستطيع أن نتفهم ما جاء في شروط استسلام القدس عندما دخلها عمر بن الخطاب عام ٦٣٨م " سمح لأهل الكتاب أي المسيحيين واليهود الذين ألحق بها (الزرادشتيين) تلطفا بالاحتفاظ بدور عباداتهم يمارسون فيها شعائرهم دون قيد ، ولم يكن لهم أن يزيدوا من عددها أو يحملوا سلاحاً أو يعتلوا جواداً وعليهم أن يدفعوا نوعا من ضريبة الرأس تعرف بالجزية " ص ٣٢ ـ رانسيمان .

نتفهم أن هذا قد طبق علي مصر القبطية ، عندما دخلها العرب ، لكننا لا نستطيع أن نفهم أن يظل ساريا ـ باستثناء الإعفاء من الجزية ـ بعد أن اعتنقت غالبية قبط مصر الإسلام .. ظلوا ممنوعين من حمل السلاح ، أي الانضمام للجيش ، واعتلاء جواد ، حتي لا يكونوا فرسانا ، وجلب الحكام الفرسان من الأجانب .. الأكراد ، والأتراك والأرمن .. لكن في أوقات الشدة ، والغزو الأجنبي كالمغول، والصليبيين ، غضوا الطرف ، عن حمل السلاح واعتلاء الجواد ، وهكذا انطلق المنادي من فوق منبر الجامع الأزهر ، وباقي مساجد مصر ، يحث الناس علي الجهاد وعلي حضور " المتطوعة " .

نظم الفلاحون والتجار من خارج دمياط مع أبنائها إغارات علي معسكرات الفرنسيين فيها .. وهربوا إليها السلاح ، والنفط ، لإشعال الحرائق في دورهم ، وأخذوا أسري كثيرين من جنودهم إلي معسكر الصالح أيوب في أشموم طناح .. وشجعهم الصالح فأعلن عن مكافآت سخية لكل من يأتيه برأس جندي من الغزاة

.. وظل المصريون طوال مدة ستة أشهر ، مدة مكوث الفرنسيين في دمياط دون حركة ، يشنون ما نسميه اليوم حرب عصابات، أو حرب استنزاف ، لإضعاف قدرات العدو . ولم يستطع قادة الحملة تحمل هذه الخسائر ، فقرروا سرعة التحرك إلي القاهرة وبالفعل غادروا دمياط في ٢٠ نوفمبر .

ورأي قادة الجيش المصري ، ضرورة الانسحاب إلي المنصورة ، حيث يمكن الدفاع عنها ، بخلاف أشموم طناح ، سارت حملة لويس في نفس المثلث الذي عانت منه حملة حنادي برين منذ ثلاثين عاما وإن كان الظرف في صالحهم ، لأن مياه الفيضان لم تأت بعد ، ويقال أن لويس أخر تحركه من دمياط ، ستة أشهر كاملة ، ليتفادي مياه الفيضان . ولكن كان عليه أن يجتاز مانعا مائيا .. بحر أشموم .. وهذا جعله يقف حوالي شهرين أمام المنصورة ، عاجزاً عن اقتحامها ، وكلما أقام جسرا ، ليعبر عليه جنوده ، تولي الفلاحون حفر خنادق حوله من جهتهم ، فتندفع مياه النيل وتقوض دعائمه ، وقام الأهالي بعبور بحر أشموم سباحة ، وشنوا الإغارات علي معسكر الفرنسيين ، واختطفوا كثيراً من جنودهم أسري .

ويقال أن أحد الخونة ، دلهم علي مخاضه ، قريبة عند سلمون ، يمكن لفرسانهم خوضها والوثوب داخل المنصورة . وكان الصالح أيوب قد توفي في ٢٣نوفمبر ، واستطاعت أرملته شجرة الدر * إخفاء الأمر . وكان أن قرر الفرنسيون الهجوم عن طريق المخاضة ، رغم معارضة الملك ، الذي كان ينتظر وصول امدادات من جهة ، ومن جهة أخري ، لم يكن قد أتم جسرا يعبرا عليه مشاته ، لتدعيم الفرسان إذا نجحوا في الاستيلاء علي المنصورة . كان الفرنسيون يقيمون معسكرهم علي الضفة الشمالية من بحر أشموم ، وكان معسكر المصريين علي الضفة الجنوبية علي تل مرتفع يعرف باسم جديلة (ضاحية جديلة الحالية) ، التي كانت تطل علي الشاطئ الجنوبي لبحر أشموم علي بعد ٣ كم شمال شرق المنصورة و ١ كم إلي الشرق من فرع دمياط وكانت القوات التي ستعبر المخاضة تنقسم إلي ثلاثة أقسام ، فرقة الكونت أرتوا وجماعة الفرسان الداوية بقيادة وليم دي سوناك والفرقة الإنجليزية بقيادة وليم طويل السيف،وكان مع المقدمة فرقة الخيالة الملكية من حملة القسي ، ثم المجموعة الثانية من القوات وهي تتألف من فرسان شامبانيا بقيادة كونت انجو ، والقسم الثالث يتكون من الملك لويس وفرسانه .

---

* اسمها الحقيقي شجر الدر ، وعرفت بين الناس وفي الكتابات الشعبية شجرة الدر .

وكان علي رجال المقدمة عبور المخاضة إلي الجانب الغربي ، ومباغتة المصريين والاستيلاء علي معسكرهم ثم الانتظار حتي تعبر القوات الرئيسية بقيادة لويس ، ويبدأ الهجوم . وبالفعل عبرت الطليعة المخاضة ، وسبحت جيادهم فيها ، وغرق عدد كبير منهم لارتفاع الشاطئ وكثرة الأوحال .

وشنوا هجوما خاطفا علي ضواحي المنصورة ، وأسرع الأمير فخر الدين وفرسانه الذي لم يتوقع الهجوم من هذه الناحية .. وقضي علي الأمير وفرسانه بعد معركة دامية .. وأغري ذلك الفرنسيين للتقدم داخل المنصورة ، وتغلب رأي المنادين بالإسراع بالهجوم . ففي صبيحة الثلاثاء الثامن من فبراير عام ١٢٥٠م، اندفعت ثلاثة فرق من الفرسان ، تؤلف طليعة الجيش الفرنسي . فرقة من الفرنسيين يقودها الكونت روبرت أرتوا شقيق لويس التاسع ملك فرنسا وفرقة من الإنجليز يقودها وليم طويل السيف حاكم مقاطعة سالسبوري بانجلترا وفرقة من الرهبان الداوية يقودها رئيسهم وليم دي سوناك.

وكانت كل فرقة مكونة من ثلاثمئة فارس .. وقد أبادها الأهالي فى شوارع المنصورة ، وقتل الكونت أرتوا ، وفقد وليم دي سوناك إحدي عينيه ، وقد ساعد بعض الفرسان ، علي رأسهم ركن الدين بيبرس البندقداري التى تولي قيادة الجيش المصري ، بعد مقتل قائد الجيش الأمير فخر الدين يوسف ، ويقدر ما قتل من فرسان العدو بحوالي ألف فارس ، وإن كان بعض المؤرخين يقدره بثلاثة آلاف فارس . ووصل لويس ورجاله جنوب بحر أشموم ، لايدري بما جري داخل المنصورة ، ويود استكمال بناء الجسر ليعبر المشاة .. لكن سرعان ما هاجمه المصريون .. وإزاء ما لحقه من هزائم تراجع إلي الضفة الجنوبية لبحر أشموم متكبداً خسائر جسيمة فى العتاد والأرواح ، وغرق عدد كبير عند عبورهم البحر ، وزاد من خطورة الموقف أن المشاة وحملة القسي كانوا علي الضفة الشمالية مع دوق برجنديا عاجزين عن تقديم أي عون ، بعد أن مات جميع حملة القسي من الفرسان مع كونت أرتوا داخل المنصورة . وفي تلك الأثناء نجح الفرنسيون فى إقامة جسر من السفن عبر عليه حملة السهام والمشاة لنجدة لويس وقواته .

بعدها انتقلت المبادرة إلي الجيش المصري ، ففي يوم الجمعة الحادي عشر من فبراير قام بمهاجمة المعسكر الفرنسي علي الشاطئ الآخر من النيل ، كان لويس قد أعاد تنسيق قواته فى إحدي عشرة فرقة ، انتظمت عشرٌ منها علي طول الضفة الجنوبية لبحر أشموم فى مواجهة المعسكر المصري ، أما الفرقة الحادية عشرة فعلي الضفة المقابلة .

وأمر لويس فرسانه أن يقاتلوا مترجلين لصد هجمات المصريين ، ولم يكن من سبيل إلي الاتصال بمعسكرهم في الضفة الشمالية إلا جسر خشبي صغير ، نجحوا في إقامته ، وكان الجناح الأيسر تحميه بعض الشئ فرقة حملة القسي علي الضفة الشمالية بقيادة دوق برجنديا ، أما الجناح الأيمن فكان مكشوفا أمام القوات المصرية .

وقسم بيبرس قواته إلي مقدمه وقلب ومؤخرة . كانت المقدمة مكونة من أربعة آلاف فارس ومن خلفهم المشاة وفي المؤخرة اصطفت جيوش أخري للمساعدة إذا دعت الحاجة .

وأصدر أوامره إلي عامة الشعب بعبور بحر أشموم وشن الغارات علي المعسكر الفرنسي لعرقلة نشاط مشاة الصليبيين ، وعدم إتاحة الفرصة لها لمعاونة القوات علي الضفة المقابلة . وفي منتصف النهار اندفع الفرسان بتشكيلاتهم صوب الفرق الفرنسية ، فاندفع المشاة نحو فرقة كونت أنجو ورموه بالنار الإغريقية ، ثم انقض الفرسان وأنزلوا برجاله هزيمة قاسية إلا أن الكونت تمكن من الفرار .

وكانت فرقة جماعة الداوية قد أقامت حاجزاً من المتاريس فأحرقه المصريون وأطبقوا علي رماة الفرقة وقضوا عليهم .

وصمدت فرقة جي دي موفوزان رغم الحرائق ، و تمكنوا من إخمادها ، ولم يتمكن المصريون من اختراقها .

وفتك المصريون بفرقة كونت بواتييه شقيق الملك ، وكانت من المشاه ، وتمكن قائدها من الهرب ، واخترق المصريون فرقة جوسران وكادت تبيدها لولا السهام من الضفة الأخري ، التي ساهمت في إنقاذ بعض أفرادها وإن كان قائدها قد مات . ولم يهاجم المصريون فرقة دي جوانفيل ، لأنها لم تكن في مواجهتهم. كما كاد المصريون يقضون علي فرقة وليم أمير الأراضي الواطئة لولا أن أسرع لمساعدتها بعض الفرنسيين .

وكان لما قامت به عامة الشعب من مناوشات للفرنسيين علي الضفة الشمالية ، أن أتاح الفرصة للجيش المصري أن يصول بين الفرق الفرنسية المصطفة أمامه وانتهت معركة يوم الجمعة بهزيمة ساحقة للفرنسيين ، وهي تعتبر من أشد المعارك وأعنفها في تاريخ الحملة الصليبية ، وفي تاريخ الكفاح ضد الاستعمار .

وكان توران شاه ، نجل الصالح أيوب ، قد حضر علي عجل من الشام ، ليتولي عرش مصر ، " ومن ثم أمر السلطان الجديد بصنع عدة مراكب حملت مفككة علي الجمال عند سمنود ، ونقلت عن طريق البر إلي بحر المحلة .. وهناك أعيد

تركيبها ، وأنزلت إلي بحر المحلة خلف المعسكر الفرنسي بعد أن تم تزويدها بالمحاربين وكان الغرض من ذلك عرقلة الغزاة بأسطولهم .. وبحر المحلة هذا الذي تستتر فيه أسطول المصريين لاصطياد سفن العدو يخرج من فرع مليج عند قرية ضيا الكوم بالقرب من طنطا ويمر بقرية الهيثم ثم ببلقينة فالمحلة الكبري إلي أن يتصل بالنيل عند شرمساح " ص ٧٠ - هزيمة لويس . د.جوزيف نسيم * .

وتمكنت هذه السفن من قطع الإمدادات والمؤن عن معسكر الصليبيين عند المنصورة ، وشن الأسطول المصري عدة هجمات علي الأسطول الفرنسي ، تمكن فى إحداها من أسر اثنتين وخمسين سفينة ، وخسر العدو ألف جندي ما بين قتيل وأسير ، وفى معركة أخري تم أسر اثنتين وثلاثين سفينة .

وأصبح الفرنسيون فى موقف صعب ،، قواتهم تعاني من نقص الإمدادات والتموين، وتفشي المرض بين صفوفهم .. ومنوا بهزيمتين فى الثامن والحادي عشر من فبراير . كانت لهم قوات جنوب بحر أشموم ، وكان لابد من الانتقال إلي المعسكر القائم علي الضفة المقابلة فى الشمال ، حتي يمكن للقوات مجتمعة التراجع إلي دمياط . فعلوا ذلك والمقاومة المصرية لا تسكت عنهم ، وفى مساء الثلاثاء الخامس من أبريل بدأوا فى التراجع نحو الشمال إلي دمياط ، وفي عجلتهم واضطرابهم لم يحطموا الجسر الخشبي ، وسرعان ما عبرت فوقه القوات المصرية ، وكبدتهم خسائر فادحة . وعند فارسكور أطبق عليهم المصريون .. وألحقوا بهم الهزيمة الثالثة علي التوالي وبلغت خسارتهم فى القتلي عدة آلاف كما أسروا عدداً من مشاتهم وفرسانهم وصناعهم ، عدا الغنائم من الذخيرة والخيول والعتاد ، ولم يستشهد من القوات المصرية أكثر من مئة مقاتل .

وكان المرض قد اشتد بلويس ، فأخذه قادة جيشه إلي قرية ميت الخولي عبد الله ليستريح .

وكان لويس قد حاول فتح باب المفاوضات ، وعرض رسوله أن يعيد دمياط فى مقابل أن تتنازل له مصر عن بعض المدن الساحلية فى فلسطين ، وأن يخرج بما بقي من جنودة سالما من مصر . لكن مصر رفضت .

وسرعان ما أطبق الجيش المصري علي لويس وقادة جيشه وأخذوهم أسري إلي دار ابن لقمان بالمنصورة .

---

* هزيمة لويس التاسع علي ضفاف النيل - د. جوزيف نسيم يوسف .

ولقد أدت عوامل كثيرة إلي هذا النصر الكبير منها :

كان المصريون أبرع من الفرنسيين فى الهندسة ، فقد أقام العدو أحد أبراجه علي جانب من ترعة ، دون إدراك لطبيعة الأرض القريبة من النيل ، وسرعان ما قام المصريون الذين يدركون طبيعة الأرض بالحفر ليندفع الماء وينهار البرج ، ويظل البرج المقابل له وحيدا ، وليظل الفرنسيون عاجزين عن إقامة جسر بينهما، تعبر عليه مشاتهم ، فترة طويلة .

كانت مفاجأة الحرب " النار الأغريقية " وهي كرات عظيمة من اللهب ، لها ذيول من النار ، لم يكن للفرنسيين دراية بها . كان المصريون يطلقونها من الأبراج الخشبية العالية ، فتحدث الحرائق والدمار فى معسكر العدو .

أما مفاجأة الحرب الحاسمة ، فكانت المقاومة الشعبية " إذ أقام الأهالي المتاريس فى الطرقات .. وكانت النساء إلي جانب الرجال يحفرون الخنادق ويقيمون الموانع حولها .. واتخذ السكان من منازلهم حصونا ومن شرفاتها قلاعا . وأخذوا يرمون الفرنسيين بالقذائف والأحجار والطوب وحفن التراب من الأسطح والنوافذ ، ويرشقونهم بالسهام والرماح والنشاب .. وأخذتهم السيوف من كل جانب ، فهوي كثير من فرسانهم عن جيادهم صرعي .. كما أن خيولهم الضخمة لم تتمكن من التجول بين الأزقة والدروب ، فاختل نظامهم ، وازداد موقفهم خطورة " ص ٥٥ ـ هزيمة لويس ـ د. جوزيف نسيم .

أضف إلي ذلك نظام تسليح فرسان العصور الوسطي الذي يُغطي أجساد الفرسان بالدروع الثقيلة ، ويحملون حرابا كبيرة ، وكل هذا لا يمكنهم من سرعة الحركة، والمناورة في شوارع وحارات المنصورة الضيقة .

ولقد أخطأ الفرنسيون بمكوثهم شهور طويلة فى قبرص ودمياط دون عمل ، مما اتاح الفرصة لحياة الإبتذال التى غرق فيها قادتهم وجنودهم من خمر ونساء وسلب ونهب .

وكان لقيام الأهالي بالجهد الكبير فى حمل المؤن ، وحمل الجرحي، وإقامة الأبراج الخشبية ، لرماة السهام والقسي ، وكذا قتالهم فى شوارع المنصورة ، أثر كبير فى ادخار قوة الجيش المصري ، التى ظلت غالبيتها متربصة فى معسكرها ، سالمة ، وشنت هجومها الكبير يوم الحادي عشر من فبراير ، وهي فى كامل استعدادها .

كما كان للإغارات التى شنتها المقاومة الشعبية ، علي معسكرات الفرنسيين ، قبل القتال ، وأثناء زحفهم من دمياط أثره ، فى النيل من روحهم المعنوية وفي

إحداث خسائر بين رجالهم وعتادهم ، وكانت المقاومة تبتكر كل يوم جديداً للنيل من العدو .

يذكر أن أحد أبناء المنصورة ، أحضر بطيخة ، وجوفها ، ووضعها علي رأسه وسبح في بحر أشموم ، مبرزا البطيخة فوق سطح الماء ، فنزل فرنسي إلي الماء من الجهة المقابلة ، ليقتنص البطيخة ، فقبض عليه المنصوري ، وأخذه أسيرا .

كما كان للقيادة الحكيمة لشجرة الدر ، أثرها في سير المعركة ، فقد سيطرت علي قادة الجيش بحزم ، واستطاعت إخفاء خبر موت الصالح نجم الدين أيوب وإن كانت بعض المصادر ترجح أن الخبر قد تسرب للفرنسيين.

وكان ما فعلته شجرة الدر ، لتخفي الخبر ، أن وضعت جثة الملك في تابوت وأرسلتها سرا إلي قلعه المماليك البحرية بجزيرة الروضة ، وجعلت الأطباء يعودون الملك في حجرته كأنه موجود ، ومدت سماط مائدته يوميا للأمراء ، كما كان يفعل ، واستمرت خطبة الجمعة في المساجد باسمه ، واسم ولي العهد توران شاه ، واستمر اسم الملك ينقش علي الدنانير والأوامر تصدر باسمه، وكانت شجرة الدر ، البارعة في الكتابة ، تقلد علامة السلطنة ، وكان خادمه صواب السهيلي يقلد توقيع الملك .

وكان لتلاحم جميع طوائف الشعب ، أثره ، لا سيما الوحدة الوطنية ، بين عنصري الأمة ، المسلمين والقبط ، فالأخيرين " لم ينسوا الأضرار الجسيمة التي لحقتهم من الفرنجة أنفسهم الذين كانوا يغيرون علي الديار المصرية من وقت لآخر ، ويعيثون فيها فسادا دون مراعاة لحرمة بيوت الله من مساجد وكنائس .. وهم لم ينسوا أيضا أن الصليبيين عندما استولوا علي بيت المقدس في بداية حركتهم العدوانية ، منعوا القبط من زيارة الأراضي المقدسة والحج إليها ، فلم يدخلوها حتي استردها منهم صلاح الدين الأيوبي .. وهم لم ينسوا كذلك أنهم كانوا في نظر الكنيسة الرومانية الكاثوليكية ضالين عن جادة الدين الحقيقي مما جعلهم مكروهين في الأوساط اللاتينية لأنهم علي غير مذهبهم " ص ٥٦ – هزيمة لويس – د. جوزيف نسيم .

وكان لما قام به السوريون ، عندما استولوا علي صيدا من الصليبيين ، حال سقوط دمياط ، وفي توجيه ضربات شديدة لباقي ممتلكاتهم ، أثر كبير في رفع الروح المعنوية في مصر ، وفي منع الإمدادات من الشام للفرنسين في مصر .

وفي صباح السابع من مايو عام ١٢٥٠ م ، أوفد لويس أحد رجاله إلي دمياط

لتسليمها للمصريين ، بعد اتفاق الطرفين علي ذلك ، وعلي دفع فدية مقدارها ٨٠٠ ألف دينار ، يدفع نصفها مقدما ، وبعد أن تمّ ذلك ، أفرج عن لويس " أما بقية الأسري – وعددهم أكثر من اثني عشر ألف أسير – فقد ظلوا فى الأسر لحين دفع باقي المبلغ المطلوب " ص ٢٠٧ – الأيوبيون والمماليك – د. سعيد عاشور .

وبمغادرة حملة لويس ، مصر ، عم أوربا مأتم كبير ، كما جاء علي لسان مؤرخيهم ، ولم يمض وقت كبير ، حتي انتهي وجود الصليبيين فى الشام . ففي ١٨ مايو عام ١٢٩١م ، أي بعد واحد وأربعين عاما فقط من معركة المنصورة ، تمكن سلطان مصر الأشرف خليل قلاوون من الاستيلاء علي آخر حصونهم الحصينة فى عكا ، وبعدها انحسر وجودهم نهائيا فى الشام ، وظلت أوربا ، لمدة خمسة قرون كاملة لا تعتدي علي الشرق ، إلا أن جاءت حملة نابليون بونابرت ، تدك بمدفاعها مدينة الاسكندرية فى أول يوليو عام ١٧٩٨ م ، زاعما أنه يود إقامة حكومة أهلية فى مصر ، وتخليصها من المماليك . ويبدأ فصل جديد من الاعتداء الأوربي الاستعماري علي الشرق .

كانت معركة المنصورة المجيدة فى الثامن من فبراير عام ١٢٥٠ م .. معركة فاصلة فى التاريخ .. انتقل الميزان الاستراتيجي لصالح مصر والشرق العربي ويكفي أن نعرف أنه بعد معركة المنصورة بعشر سنوات ، كان الجيش المصري، يخوض معركة فاصلة أخري ، بنفس قادة معركة المنصورة ، وكأنهم كانوا يتمرنون فيها ، لصد خطر المغول * .. وأحرزت مصر انتصارا تاريخيا فى " عين جالوت " بفلسطين عام ١٢٦٠ م ولا شك أن الانتصار الكبير فى المنصورة، قد أعطي دفعة معنوية هائلة للانتصار علي المغول .

و تمكنت مصر فى عقد واحد من الزمان ، من إنقاذ الشرق من الصليبيين وإنقاذ الشرق ، وأوربا من خطر المغول ، الذين كانوا يعتزمون ، جعل مصر نقطة وثوب إلي أوربا .

---

* ويطلق عليهم " التتار " وهي كلمة تعني الصوت العاصف ، أو القوم الذين يثيرون الرعب والدمار .

المراجع

- تاريخ الحملات الصليبية – ستيفن رانسيمان – ترجمة نور الدين خليل جزء ١ طبعة ٢ – ١٩٩٨ – (دون جهة نشر) . الطبعة الأولي من هذا الكتاب صدرت عن هيئة الكتاب عام ١٩٩٤ .
- الحملة الصليبية الأولي وفكره الحروب الصليبية – جوناثان ريلي – سميث . ت : د. محمد فتحي الشاعر هيئة الكتاب ١٩٩٣ – الألف كتاب الثاني ١٢٩ .
- حضارة مصر – د. سليمان حزين – مطبوعات مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٥ .
- رؤية اسرائيلية للحروب الصليبية – د. قاسم عبده قاسم – دار الموقف العربي ١٩٨٣ .
- الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام – د. سعيد عاشور – دار النهضة العربية ١٩٧٠ .
- هزيمة لويس التاسع علي ضفاف النيل – د. جوزيف نسيم يوسف – مؤسسة المطبوعات الحديثة (دون تاريخ) .

حملتا لويس نابليون

ثمة تشابه كبير بين الحملتين ، رغم بعد المسافة الزمنية بينهما، إحداهما من العصر الوسيط ، عندما قاد لويس التاسع ملك فرنسا الحملة الصليبية السابعة على مصر ، والثانية فى بداية العصر الحديث، عندما قاد نابليون بونابرت حملة للاستيلاء على مصر . أيام الحملة الأولى كانت مصر تعاني من تسلط حكامها من المماليك ، وأيام الحملة الثانية كانت مصر ولاية عثمانية ، تعاني من بطش وتعسف ولاة هذه الدولة . وكان حريا بأبناء الشعب المصرى أثناء الحملتين ، أن يتركوا أمرهما للحكام ، من جراء ما عانوه من ظلم وجور ، ونكاية بهم .

لكن المصريين ، لم يبحثوا عن حجج تبرر تقاعسهم . كانوا ، ومازالوا ، يعلمون أن الحكام البغاة زائلون ، وأن مصر باقية ، وأن التمسك بالكرامة ، وتحصين الكبرياء ، هما إرثان يجب تركهما للأجيال المتعاقبة .

وفى مقاومة حملة لويس ، لجأت إلى كتاب " القديس لويس حياته وحملاته على مصر والشام " من تأليف جون جوا نيفيل . وكان جوانيفيل مرافقا للويس أثناء الحملة ، وهو فضلا عن ذلك صديق للملك. وبهاتين الصفتين لن يشكك أحد فى صدقه ، عندما يتحدث عن المصريين .

والفقرات التى استشهدت بها فى الحديث عن هذه الحملة ، أخذتها من هذا الكتاب .

وفى مقاومة حملة بونابرت ، لجأت إلى كتاب " تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر " للمؤرخ عبد الرحمن الرافعى .

وذلك لموضوعية المؤرخ وإلمامه بما كتب عن الحملة من معاصريها مثل المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي وقادة الحملة الفرنسية ، وكذا ما كتبه المؤرخون عن الحملة بعد ذلك .

والفقرات التى ذكرتها فى الحديث عن هذه الحملة مأخوذة من هذا الكتاب .

وبقراءة الأدبيات التى سبقت الحملة ، نجد كثيراً من الكتاب والقناصل السياسيين والرحالة ، قد كتبوا إلى حكومتهم الفرنسية يدعونها للاستيلاء على مصر ، تعويضاً عن ضياع المستعمرات الفرنسية فى جزر الهند الغربية ، وأن ذلك سوف يجعل التجارة بين فرنسا ودول الشرق ميسراً . وأكد سانت بريست سفير فرنسا فى القسطنطينية أنه لابد من الاستيلاء على مصر لضمان المصالح الفرنسية .

وجاء نابليون ، الذى عدَّ نفسه ابن الثورة الفرنسية ، ليحقق هذه الأمنية فى عام ١٧٩٨ ، نابليون الذى كان من ثلاث سنوات فقط ، وقد بلغ الرابعة والعشرين من عمره ، يتجول على غيرهدي على ضفاف نهر السين ، يفكر جديا فى الانتحار لفقره . وفكر فى الذهاب إلى تركيا للإفادة بخبرته العسكرية فى تنظيم جيش السلطان العثماني ، ولعله يحظي بولاية شرقية .

وعندما واتته الفرصة للسفر إلى مصر ادعي أنه جاء لإهلاك أعداء الإسلام .. وكان أن قام بهدم عدد كبير من مساجد القاهرة وأنشأ فى بعضها ثكنات لجيشه ، واقتحم فرسانه صحن الجامع الأزهر ، وكسروا قناديله ومحوا الآيات القرآنية عن جدرانه ، وأباح لجنوده شرب الخمر فى أرجائه كيفما يشاءون .

ولبس نابليون العمامة ، واحتفل بالمولد النبى ، ولم يتردد فى بذر بذور الفتنة بين عنصرى الأمة ، فأنشأ جيشا من الأقباط بقيادة المعلم يعقوب ، ومنع المسلمين من الالتحاق به .

وها هو نابليون ، لا يخفى أطماعه الاستعمارية ، فيصرح لمدام دي ريموسا عام ١٨٠٣ :

" فى الشرق كان حلمي تكوين امبراطورية ، وفى مصر حيث العمالة رخيصة ، يمكن بالفرنكات والتفكير السليم بناء أسطول، ويمكن بالشجاعة والخيال دفع هذا الأسطول عبر البحر والمحيط ليصل إلى الهند والاستيلاء من الاستعمار البريطاني على درة ممتلكاته " .

حملة لويس :

كلفت الملكة بلانش ، أم لويس التاسع ، وهي من أصل إسباني ، جون جوانيفيل ، صديق ابنها ، ومرافقه فى رحلته إلى مصر ، بعمل كتاب عن لويس " يتضمن ما للكنا الراحل القديس من أقوال طاهرة وفعال كريمة " .

ولقد امتثل جوانيفيل لطلب الملكة ، طاعة لها ، وتقديراً ووفاءً لصديقه الراحل .

ومن المرجح أنه شرع فى الكتابة فى المدة الواقعة بين مارس ١٣٠٥ ومارس ١٣٠٦ ، لكن الثابت أنه أنهاه فى أكتوبر ١٣٠٩ ، كما نص على ذلك فى نهاية كتابة .

ولقد استقى جوانيفيل معلوماته من كتاب عن مناقب لويس ونشأته (لم يذكر اسمه) وعما سمعه من أصدقائه والمعاصرين له ، ومن مشاهداته ، خاصة أثناء الحملة على مصر ، وهذه الشهادة هي التى تعنينا ، أولا لأنه شاهد عيان ، وثانيا لأنه لا يمكن التشكيك فيما ذكره عن بلاء المصريين فى معركة المنصورة، وهو الذى جاء لمحاربتهم .

ولقد أفرد جوانيفيل ما يقرب من نصف الكتاب ، للحديث عن مناقب لويس القديس ، وفعاله الحافلة بالشهامة والمروءة ، وكذا عاطفته الدينية ، ونبله . كما وقع فى بعض الأخطاء التاريخية .

ومع تقديرنا العميق لإيمان لويس المسيحي ، الذى حضر إلى مصر من أجل الرب ، فنحن لا نستطيع أن نفهم كيف يكون الاستيلاء على مصر من أجل الرب . لقد قام لويس بحملته عام ١٢٤٩م ، بعد مئة

وخمسين عاماً من بدء حملات الفرنجة (الصليبيين) إلى الشرق ، واستيلائهم على القدس فى عام ١٠٩٩ ، وقد أتضح للكافة أنهم اعتدوا على المسيحيين فى المجر وبيزنطة وقتلوهم فى فلسطين .. ومنعوا أقباط مصر من زيارة القدس ، واعتدوا على كنائسهم . وإذا غضضنا الطرف عن ذلك ، وقلنا أنه حضر إلى مصر لتأمين الممالك الصليبية فى الشام . فقد أدرك الفرنجة خاصة بعد هزيمة مصر لهم بزعامة صلاح الدين فى حطين ١١٨٧ م ، وسقوط القدس فى يد ا لجيش المصرى عام ١٢٤٤ م أنه لا يمكن الدفاع عن هذه الممالك واسترداد القدس ، دون الاستيلاء على مصر ، التى كانت دائمة الإغارة عليها ، ولم يكن لها حيلة ، فأمن مصر يبدأ من الشام . فكيف نغض الطرف ، بعد هزيمته فى مصر ، عن قيامه بحملة للاستيلاء على تونس ، توفى فيها . ما علاقة تونس بتأمين ممالك الشام ، وما علاقة تونس بالحرب من أجل الرب .. ؟! .

لكننا نستطيع أن نفهم ، أنه أراد أن يعوض خسارته فى مصر ، بالاستيلاء على تونس .

لكن فلاحي مصر ، أصحاب هذه الأرض ، كانوا لهم بالمرصاد .

دخل لويس دمياط دون قتال ، فقد انسحب منها المماليك ، وقيل فى تبرير ذلك أن شائعة سرت عن موت السلطان ، وكانت عينا قائد الجيش على السلطنة .

لكن أهل المدينة ، والقري المحيطة بها ، لم يتركوا الفرنسيين ينعمون باحتلالهم للمدينة ، فأحرقوا أماكن المؤن والوقود ، وشنوا حرب استنزاف طوال ثمانية شهور قبل زحفهم إلى المنصورة :

" كان المسلمون يدخلون معسكرنا (فى دمياط) — كل ليلة — مترجلين ويقتلون من يجدونهم نائمين من رجالنا ، وقد حدث أن قتلوا حارس لورد كورتني وتركوه على أحد المناضد بعد أن جزوا عنقه وأخذوها معهم ، وقد حملهم على ذلك العمل أن السلطان كان يعطي ديناراً من الذهب لكل من يأتيه برأس نصراني " ص ١٠١ .

وأمام المنصورة ، وضح تفوق المصريين وجهل الفرنسيين بطبيعة الأرض " ورأي الشرقيون إفساد الجسر الذى أمر الملك ببنائه ، فعمدوا

إلى حفر فتحات أمام معسكرهم لا تكاد تصلها المياه حتى تندفع فيها مكونة مساحة كبيرة منه ، وبذلك أفسدوا فى يوم واحد ما أجهدنا أنفسنا ثلاثة أسابيع فى عمله ، وذلك أنه كلما ردمنا من المجرى ناحيتنا كلما زادوه من جانبهم بواسطة الفتحات التى يحدثونها " ص ١٠٧ .

كما اتضح أيضا جهل الفرنسيين بـ(النار الإغريقية) فقد فوجئوا بها . ويصف جوانيفيل تلك النار بقوله :

" كانت النار الإغريقية تأتي من الأمام أشبه ما تكون ببرميل كبير من القار . ذات ذنب يقارب الرمح طولا ، وكان يصحبها صوت هائل كدوي الرعد ، وكأنها طائر فى الجو ، تشع بنور كبير يكاد معه من بداخل المعسكر يرى كل شئ كأنه فى وضح النهار " ص ١١٠ .

ولم يكن للفرنسيين حيلة فى مواجهتها سوي بالدعاء إلى الله :

" وكان ملكنا القديس كلما سمع صوت قذائف النار الإغريقية جلس فى فراشه ورفع يديه وعينيه إلى مخلصنا (يقصد السيد المسيح) وهتف باكيا : أيها الرب الحنان احفظ لى شعبى " ص١١١ .

ولم يُستجب دعاؤه ، وتم إحراق البرجين اللذين أقامهما فى مواجهة المنصورة لحماية بناة الجسر " لما رأي الملك ما جرى استدعي باروناته للمشاورة ، فأجمعوا على أنهم لا يستطيعون بناء جسر يعبرون عليه للزحف على المسلمين نظراً لعجز رجالنا عن أن يردموا من جهتهم قدراً يكافئ ما يستطيع الشرقيون حفره من ناحيتهم " ص ١١٣ .

ودارت فى المنصورة وأمامها معركتان هامتان :

الأولى فى يوم الثلاثاء الثامن من فبراير ١٢٥٠ م ، بدأ الهجوم الفرنسي على المنصورة. وكانت المقاومة فى انتظارهم فى شوارع المدينة، فقد تسلح أهلها والذين تدفقوا عليها من القرى المجاورة بالبلط والفئوس والسكاكين والعصى والحجارة .

ويقول جوانيفيل :

" ولما فكر رجالنا فى العودة أخذ المماليك يرمونهم بالقسي والسهام فى شوارع المدينة الضيقة ، وهناك قُتل كونت دارتوا (شقيق الملك لويس) ولورد سوسى المعروف برادول وكثيرون غيرهما من الفرسان الذين بلغ عددهم قرابة ثلاثمئة قتيل " ص ١١٥ .

وجاءت موجة أخرى من الهجوم الفرنسى :

" وجرح هيج لوردإكوت ثلاثة جروح فى وجهه وكذلك لورد رادول ، كما أصيب لورد فردريك برمح جرحه فيما بين كتفيه ، وكان جرحاً عميقاً حتى لقد كان الدم يتدفق منه كما لو كان يتدفق من فتحة برميل ، أما جرح ايفرار لورد سفرى فكان من طعنة سيف أصابته فى وسط وجهه سقط من جرائه أنفه على شفتيه ، فخطر ببالى حينذاك أن استنجد بقديسي وسيدي سانت جيمس . فهتفت قائلا : أيها القديس الحنون ، يا سيدي جيمس ، أعني وأغثنا فى هذه الشدة " ص١١٦ .

وكان لابد من الانسحاب :

" بينما كنا راجعين إلى الشاطئ بين المجرى الفرعي والنهر أبصرنا الملك قريبا من النهر ، والمماليك يدفعون للوراء قواته ويضربون بالسيوف والصولجان ، كما أرغموا القوات الأخرى على التقهقر ، وكان اندحار رجالنا شديداً حتى لقد فكر الكثيرون من رجالنا فى المضى إلى دوق برجنديا سباحة ، ولكنهم كانوا عاجزين عن ذلك أيضا نظرا لشدة تعب جيادهم واشتداد حرارة النهار ، ومن ثم رأينا — ونحن مقدمون عليهم — المجرى مغطي بالرماح والدروع وبالجياد الغارقة والرجال الهالكين " ص ١٢٠ .

ويفرون من الميدان :

" وفى هذه الوقعة أقبل كثير من الرجال ذوى المظهر العظيم يجللهم الخجل ، وانطلقوا فوق الجسر الصغير الذى حدثتك عنه ، وقد هربوا منخلعة أفئدتهم فزعا ورعبا ، ولم يكن فى قدرتنا حمل أحد منهم على الوقوف حيث كنا ، وأستطيع أن أذكر لك أسماء بعضهم ، ولكني أضرب عن ذلك صفحا فقد ماتوا جميعا " ص ١٢٤ .

وفى هذا اليوم أُسر لويس أول مرة :

" ولقد أخبرني لورد كورتني وجون لورد أن ستةٍ من المماليك جاءوا إلى الملك وأمسكوا بلجام فرسه ، وساروا به أسيراً ، ولم يخلصه أحد سوي نفسه ، حيث أعمل الضرب فيهم بشدة بحسامه ، فلما شاهدوا كيفية دفاع الملك عن نفسه جمعوا شجاعتهم ، وتخلى الكثيرون منهم عن فكرة الهرب من الجيش عبر النهر ووقفوا إلى جانب الملك يساعدونه " ص ١٢٠ ، ١٢١ .

كان هذا فى يوم الثلاثاء ، والمعركة الثانية الهامة ، والتى أكدت الهزيمة ، كانت يوم الجمعة الحادي عشر من فبراير ١٢٥٠ م .
" سأخبرك أولا عن ملك صقلية وكان لا يزال إذ ذاك كونت أنجو ، لأنه كان على رأس الفريق المتجه إلى القاهرة ، فقد تقدم العدو نحوه كما لو كان يلعب الشطرنج لأنهم تركوا أمر الهجوم عليه أولا إلى مشاتهم الذين أخذوا يرمونه بالنار الإغريقية التى كانوا يصبونها عليه من آلات صُنعت لهذا خصيصا . ثم أخذ النشاة والفرسان فى التضييق على رجالنا فى عنف وسرعة ، حتى تمكنوا من هزيمة كتيبة كونت أنجو الذى وقف بين فرسانه وقد اشتد به الضيق " ص ١٣١ .

ويقول عن جانب آخر من المعركة :

" فقد الأخ وليم رئيس الداوية إحدي عينيه ، وكان قد فقد الأخرى من قبل يوم ثلاثاء الزفر ، وما لبث أن مات . عليه رحمه الله.

ويجب أن تعرف أنه كان يوجد خلف المكان الذى كان الداوية واقفين فيه بقعة تقرب من ميل قد غطتها مزاريق المسلمين ورماحهم وقسيهم وسهامهم ،حتى استحال على العين أن ترى الثرى "ص١٣٣.

ويقول عن كتيبة دي برانسون :

" فقد من فرسانه العشرين ، اثني عشر شخصاً دون الإشارة إلى غيرهم من الجند ، بل هو ذاته قد أصيب إصابة بالغة لم يستطع بعدها أن يقف على قدميه ، ومات بجراحه فى سبيل الرب " ص ١٣٥ .

وفى هذا اليوم أُسر كونت بواتييه شقيق الملك لويس ، واستطاع رجاله إنقاذه .

بعد هاتين المعركتين ، اتضح بجلاء عجز الفرنسيين الاستيلاء على المنصورة ، وبالتالى تعطلت خطتهم فى الزحف إلى القاهرة ، وقرروا الارتداد إلى الخف :

" حين رأي الملك أن بقاءه هناك (يقصد أمام المنصورة) لا يعني سوى الموت له هو ورجاله أمر بتقويض المعسكر فى مساء الثلاثاء (الخامس من أبريل ١٢٥٠ م) بعد ثامن أيام عيد الفصح استعداداً للعودة إلى دمياط ، كما أمر بإخبار التجار الذين لديهم سفن أن يحضروا المرضى إلى دمياط " ص ١٤٥ .

وكان دفن القتلى :

" بعد الفراغ من المعركتين المشار إليهما ، (يقصد معركتي الثلاثاء والجمعة) أخذ الجيش يقاسي الأمرين ، فما انقضت تسعة أيام حتى أخذت جثث قتلانا الذين فتك بهم المسلمون تطفوا على سطح الماء ، ويقال أن ذلك يحدث دائما من انفجار الصفراء وتعفن الجثث التى اندفعت مع التيار حتى بلغت الجسر الواقع بين معسكرينا ، فعجز التيار عن دفعها من جراء ملامسة الجسر لسطح الماء ، وبلغت الجثث من الكثرة حداً امتلأ معه النهر بها طولاً وعرضاً حتى لم تعد العين قادرة على رؤية الماء على بعد حجر من الشاطئ .

استأجر الملك مائة من الزعر ظلوا يعملون ثمانية أيام سوياً لتنظيف النهر ، فكانوا يقذفون بجيف المسلمين الذين يعرفونهم من ختانهم على الجانب الآخر من الجسر ليجرفها التيار معه ، أما المسيحيون فيوضعون فى خنادق كبيرة واحداً فوق الآخر " ص ١٤٠ .

وهذه السقطة الأخلاقية التى ارتكبها القديس (عدم دفن جثث المسلمين أسوة بالمسيحين) عادت بالهلاك على رجاله :

" امتنعنا طيلة أيام الصوم الكبير عن السمك ، ولم نأكل سوى ثعابين الماء التى تأكل الموتي لأنها من أنواع السمك الشره ، وكان من جراء هذا الأمر وما صحبه من فساد هواء المنطقة حيث ينعدم المطر انعداماً تاما أن اعترى الجيش بأجمعه مرض مروع كان يجف معه لحم أرجلنا حتى يبلغ العظم ، ثم يسْود الجلد حتى يصبح فى لون التراب

أو الحذاء القديم ، وتكثر به البقع ، وكان الذين يصابون بهذا المرض المريب يشكون علة أخرى فى فمهم من جراء أكل هذا السمك فتتعفن اللثة ، وتغدو رائحة الفم أشد ما تكون كراهة . وندُرت نجاة من ألم به هذا المرض " ص ١٤١ .

وكان جوانيفيل يسميه " مرض الجيش " .. إحدي حيل الطبيعة لحماية النوع من التهام نفسه ، تماما ، كما نرى هذه الأيام من مرض جنون البقر ، حين غذوا الحيوانات على دمائها ومخلفات بطونها فى السلخانات .

ولم يكد لويس يبحر عائداً إلى دمياط حتى هُوجم أسطوله ودُمر في النيل ، كما هوجمت قواته على البر وقتل عدة آلاف من رجاله ، وأسر مع كبار قادته ، واقتيدوا جميعا إلى دار ابن لقمان بالمنصورة .

ولم يطلق سراحهم طبقا لأقوال جوانيفيل ،إلا بعد دفع فدية قدرها ألف ألف بيزيتة ذهبية وهي تعادل خمسمائة ألف دينار ، وأعفا سلطان مصر الملك لويس من مائة ألف دينار نظراً لشهامته وتقريره أنه يدفع هذا المبلغ عن رجاله ، أما هو فلا يليق أن يسترد حريته بالمال . وسيكون تركه دمياط هو فديته .

ومع ذلك ترك القديس لويس أسراه من الفقراء ، وحاول عندما ذهب إلى الشام أن يجمع مبلغاً من المال لإطلاق سراحهم .

حملة نابليون :

يقول الرافعي فى تقديمه لكتابه : " لكل أمة صفحة من الحياة القومية ، تحتوى تاريخ الجهود التي بذلتها والآلام التى عانتها فى سبيل حريتها واستقلالها " إلى أن يقول : " وفيها بيان لنصيب الأجيال المتعاقبة فى أداء الأمانة القومية ، تلك الأمانة المقدسة ، وديعة السلف للخلف ، ووصية الآباء للأبناء " .

ولنستعرض معا هذه الصفحة القومية من تاريخنا الحديث .

استقر الأمر لنابليون بعد معركة امبابة التى عرفت فى التاريخ بمعركة الأهرام ، والتى هُزم فيها جيش المماليك ، وذهب مصطفى بك نائب الوالى إلى نابليون : " وعرض عليه تسليم مدينة القاهرة فى مقابل

عهد بحماية الأرواح والأموال وطمأنينة السكان ، فصارحه نابليون بأن أول أغراضه المحافظة على سعادة الشعب المصرى " ص ٩١ .

ولتحقيق هذه السعادة كتب نابليون إلى الجنرال كارفيللى فى ٧ سبتمبر ١٧٩٨ ينبئه أنه سيحضر إلى القاهرة نحو خمسين من الأهالى من مختلف بلاد القطر المصرى ، وكلفه أن يهئ لإقامتهم سجن القلعة " ص ٢٧٤ .

أي لم يكد يمضى على وجود نابليون فى مصر ما يقرب من شهرين إلا وكان يأخذ الأهالى من القرى رهائن حتى لا تثور عليه تلك القرى .

وفى نفس الصفحة من الكتاب نقرأ رسالته إلى الجنرال زايونشك قومندان المنوفية بتاريخ ٣٠ يوليو ١٧٩٨ ، وهو لم يكمل شهرا فى مصر، يقول : " لابد أن تكون جاءتك تعليماتي لتنظيم مديريتكم ، يجب أن تعاملوا الترك بمنتهي القسوة ، وإني هنا أقتل كل يوم ثلاثة وآمر بأن يطاف برؤوسهم فى شوارع القاهرة وهذه هي الطريقة الوحيدة لإخضاع هؤلاء الناس ، وعليكم أن توجهوا عنايتكم لتجريد البلاد قاطبة من السلاح .

وكانت هذه الكلمة (الترك) يستعملها الكتاب الفرنسيون للتعبير عن الأهالى المصريين .

ويؤكد هذا الاستعمال ما نطالعه فى رسالة أخرى لنابليون إلى الجنرال مينو قومندان رشيد : " إن الترك لا يمكن إخضاعهم إلا بالقسوة وفى كل يوم آمر بقتل خمسة أو ستة فى القاهرة ، لقد كنا نتفادي التعرض لهم حتى نزيل عن سمعتنا وصمة الإرهاب (لاحظ الإرهاب هذه) ، تلك التهمة التى كانت تسبقنا إلى أذهان الناس أما الآن فيجب علينا أن نستعمل الوسائل التى تؤدي إلى إخضاع هؤلاء القوم ، وإخضاعهم معناه تخويفهم " ص ٢٧٥ .

وبالإضافة إلى إدخال السعادة على الشعب المصرى ، فقد جاء نابليون أيضا لرفع ظلم المماليك عن كاهل الشعب المصرى . جاء فى المنشور الذى كتبه على ظهر البارجة أوريان فى ٢ يوليو ١٧٩٨ ، قبل

أن ينـزل إلـي الاسـكندرية ، وترجمـه المستشـرقون الـذين كـانوا معـه وطبعـه فـي مطبعـة علـى ظهـر البارجـة وتم توزيعـه علـى أهـالى الاسـكندرية : " يـا أيهـا المصـريين (المصـريون) قـد قيـل لكـم أنـني ما نزلت بهذا الطرف (يقصد مصر) إلا بقصد إزالة دينكم فذلك كـذب صريح فلا تصدقوه ، وقولوا للمفترين أنني قدمت إليكم لأخلـص حقكـم من يـد الظـالمين وأنـني أكثـر مـن المماليـك ، أعبـد الله سـبحانه وتعـالى وأحترم نبيه والقرآن العظيم " .

ثم :

" ومن الآن فصاعد (فصاعدا) لا ييأس (لا ييئس) أحد من أهالى مصر عن الدخول فى المناصب السامية ، وعن اكتساب المراتب العاليـة ، فالعلماء والفضلاء والعقلاء بينهم سيدبرون الأمور (فى الأصل الفرنسى سيتولون الحكم) وبذلك يصلح حال الأمة كلها " ص ٨٥ .

ولرفع الظلم عن الناس ابتكر نـابليون ضـرائب جديـدة ، لم يكـن الناس يدفعونها أيام المماليك ، ففرض ضرائب على الإيجـارات وعقـود الزواج وعقود الملكية والتوكيلات أما المباني فقد قسـمها إلى أنـواع لكـل نوع ضريبة ، الوكالات والحمامات ومعاصر الزيت والسمسم وطـواحين الغلال والأحواش والحوانيت والمقـاهي والجباسـات والبيـوت والغـرف كما فرض ضرائب على وثائق السفر وشهادات الميلاد وإثبـات الوفيـات والتركات .

ولقد أصدر نابليون أمره بهـذه الضـرائب الجديـدة دون أن ينتظـر رأي الديوان فيها ، هذا الديوان الذى أنشأه نابليون حتى لا ييئس أحد من العلماء والفضلاء من المشاركة فى الحكم وتدبر الأمر .

(وروى الجبرتي أنه فى يوم السبت ٢٨ يوليو ١٧٩٨ ، أي عقـب أن استقر نابليون فى العاصمة بأيام معدودة وعقب تأسيس (الـديوان) بثلاثة أيام " اجتمعوا بالديوان وطلبوا سلفة خمسـماية ألـف ريـال مـن التجار المسلمين والنصارى القبط والشـوام وتجـار الأفـرنج أيضـا فسـألوا (أي أعضاء الديوان) التخفيف فلم يجابوا فأخذوا فى تحصيلها " .

فنرى من ذلك أن الديوان لم تكن له سلطة ما في منع الغرامات والقروض الإجبارية التي يفرضها الفرنسيون ، ولعل ذلك كان من أهم الأسباب التي دعت إلى سقوط منزلته في نظر الشعب . وذكر دي لاجو نكيير بعض ما فرضه نابليون في أنحاء البلاد على مختلف الطبقات من القروض الإجبارية في الأيام الأولى للحملة ، فمن ذلك أنه فرض على تجار الإسكندرية ثلاثمئة ألف فرنك ، وتجار رشيد مائة ألف فرنك و تجار دمياط مائة وخمسين ألف فرنك .

وعلى تجار المنسوجات بالقاهرة ستين ألف ريال نقداً وأربعين ألف ريال عروضا (ملابس وأحذية للجنود) وعلى تجار البن والبهار بالقاهرة مئتي ألف ريال .

وعلى الأقباط الذين يتولون تحصيل الضرائب في الأقاليم مئة ألف ريال .

وعلى تجار خان الخليلي عشرة آلاف ريال ووكالات الصابون عشرة آلاف ريال ووكالات الفاكهة ستة آلاف ريال والسقائين خمسة عشر ألف ريال وتجار السكر عشرة آلاف ريال وتجار الأقمشة الهندية بالغورية خمسة عشر ألف ريال) ص ٢٦٧ ، ص ٢٦٨ .

ولم يكتف الفرنسيون بذلك بل فرضوا غرامات حربية على النساء ليأمن على أنفسهن ويقول ريبو أن مجموع ما فرضه الفرنسيون على نساء المماليك بلغ ٦٠٠ ألف فرنك ، دفعت منها نفيسه المرادية الثرية الكبيرة ، والتي لها شعبية لنجدتها للمظلوم ، ولتبرعها للأعمال الخيرية ، مبلغ ٤٩٢,٨٥٧ فرنكا . ولم يشفع لها أنها حمت التجار الفرنسيين قبل الحملة من بطش المماليك حتى أن قنصل فرنسا مجالون أهداها ساعة مرصعة بالجواهر تقديراً لخدماتها باسم الجمهورية الفرنسية ، واضطرت لكي توفي حصتها في الغرامة الحربية أن تتنازل عنها وعن حليها وكثيراً من أملاكها .

كما قام الفرنسيون بمصادرة البيوت التي عجز أصحابها عن إثبات ملكيتها لصالح الجمهورية الفرنسية ، كما أخرجوا كثيراً من

أصحاب البيوت من بيوتهم بحجة حاجتهم إليها ، وهدموا كثيراً من المباني والآثار والمساجد بحجة تحصين القاهرة .

ومن الغرامات الأخرى التى فرضها الفرنسيون : " طلبوا الخيول والجمال والأبقار والثيران والسلاح ، وكانوا يفتشون المنازل ويكسرون الدكاكين بسوق السلاح وغيره ويأخذون ما يجدون فيها من الأسلحة ، وفى كل يوم ينقلون على الجمال والحمير من الأمتعة والفرش والصناديق والسروج وغير ذلك ما لا يحصى . ويستخرجون الخبايا والودائع . وطلبوا أهل الحرف من التجار بالأسواق وفرضوا عليهم نقوداً على سبيل القرض والسلفة مبلغاً يعجزون عنه " ص ٢٧١.

وإزاء هذه السعادة الغامرة التى لم يعتدها المصريون ، فقد شكوا إلى علماء الأزهر .. وسرعان ما اشتعلت حمية الثورة وتدفق الأهالى من الضواحي والقرى القريبة من القاهرة .. وهاجموا الفرنسيين . أبادوا الكتيبة التى تحتل الحارة الموصلة إلى ميدان الأزبكية ، حيث مقر قيادة نابليون ، وقتلوا الجنرال ديبوي قومندان القاهرة والكلونيل سلكوسكي ياور نابليون وقدر عدد القتلى من الفرنسيين فى يومي ٢١ ، ٢٢ أكتوبر ١٧٩٨ بـ ٢٠٠ قتيل ومن المصريين بحوالى أربعة آلاف قتيل أغلبهم من المدنيين العزل من السلاح ، فى حين لم يتعرض المصريون للفرنسيين العزل : " وفضلا عن ذلك فإنهم يعترفون أن الطبقة المتوسطة من سكان العاصمة قد برهنت خلال الثورة على مروءة كبيرة وعواطف نبيلة بإيواء الفرنسيين العزل من السلاح . قال ريبو فى هذا الصدد : إن جميع الفرنسين الذين التجأوا إلى بيوت الطبقة المتوسطة قد اطمأنوا فيها على حياتهم وألفوا بها النجدة والمروءة " . ص ٢٨٩ .

وبينما كانت هذه المروءة ، كان التنكيل بالمصريين غداة الثورة :

" كتب الجنرال برتييه يوم ٢٣ أكتوبر ١٧٩٨ إلى الجنرال دوجا قومندان مديرية المنصورة وقتئذ يخبره بحوادث الثورة . قال : لقد نكلنا بالثائرين فى مذبحة رهيبة فسادت السكينة مساء أمس وقد قتلنا منهم ألفين أو ثلاثة آلاف .

وأمر نابليون الجنرال برتييه فى ٢٣ أكتوبر أن يصدر تعليماته إلى قومندان المدينة (يقصد القاهرة) بقطع رؤوس جميع المسجونين الذين أخذوا ومعهم أسلحة ، وعليكم إرسال الجثث هذه الليلة إلى شاطئ النيل فيما بين بولاق ومصر القديمة وإغراقها فى النهر .

وأرسل نابليون بتارخ ٢٦ أكتوبر إلى الجنرال رينييه قومندان الشرقية يقول : عادت السكينة إلى القاهرة ، وفقد الثائرون نحو ألفى قتيل ، وفي كل ليلة نقطع رؤوس نحو ثلاثين من الرجال وكثيراً من زعماء الأهالى ، وأظن أن هذا سيكون درساً قاسياً لهم " ص ٢٩٣ .

" وقال المسيو بوريين سكرتير نابليون الخاص فى مذكراته : سيق المسجونون إلى القلعة ، وكنت أتولى مساء كل يوم كتابة الأوامر القاضية بإعدام اثنى عشر سجينا كل ليلة ، وكانت جثث القتلى توضع فى زكائب وتغرق فى النيل ، واستمر ذلك ليالى عديدة وكان كثير من النساء ممن نفذ فيهن أحكام الإعدام الليلية " ص ٢٩٤ .

وقام الفرنسيون بالقبض على ثمانين من أعضاء لجنة الثورة ، وتم إعدامهم سراً دون محاكمة . أما الذين حوكموا رسميا وتم إعدامهم بصفتهم زعماء الثورة فهم شيوخ الأزهر : إسماعيل البراوي ويوسف المصيلحي وعبد الوهاب الشبراوي وسليمان الجوسقى (شيخ طائفة المكفوفين) وأحمد الشرقاوي .

وزيادة فى إدخال السعادة إلى نفوس المصريين قام الفرنسيون بهدم الدور ونهبها ، وضرب الجامع الأزهر بالقنابل واحتلاله ونهب ما به من كتب ، وأمتعة أحضرها الأهالى إليه ، ظنا منهم أن العسكر لا يقتحمونه لحرمته ، كما أمر نابليون بالاستيلاء على بيوت الأهالى المحيطة بمركز قيادته فى الأزبكية وإسكان الفرنسيين بها ، وأبطل اجتماع الديوان وهدم جامع الكازروني بالروضة والجامع المجاور لقنطرة الدكة غرب الأزبكية ، وضربوا دورا كثيرة وأخذوا أبوابها وشبابيكها وما بها من أخشاب للمساعدة فى بناء حصون جديدة .

وإذا كانت القاهرة قد كفرت بنعمة نابليون فى الشهر الثالث لقدومه ، فإن الأقاليم جحدت نعمته مبكراً فى الشهر التالى لقدومه ..

فعلى سبيل المثال " ائتمر أهالى المنصورة والبلاد المجاورة بجنود الحامية واتفقوا على الفتك بهم . فبينما كان الجنود فى معسكرهم يوم ١٠ أغسطس ١٧٩٨ دخلت المدينة جموع كثيرة من أهالى البلاد المجاورة، وكان اليوم يوم السوق العامة ، فاختلطوا بأهل المدينة ، ووافقوهم على الفتك بجنود الحامية ، فهاجموا الجند ، ونادت المدينة كلها بالثورة رجالاً ونساءً . وكانت النساء يحرضن أزواجهن على أن يثوروا بالفرنسيين ، ولما شعر الجنود بالخطر امتنعوا فى معسكرهم فحاصره الثائرون وشرعوا فى دكه وأشعلوا فيه النار فاضطر الجنود إلى اخلائه هاربين وانحدروا إلى السفن قاصدين الفرار ، ولكن الجموع تكاثرت عليهم وأبى رجال السفن أن يحملوهم ، فالتجأوا إلى البر وقصدوا دمياط لكن الثوار أخذوا عليهم الطريق ثم قتلوهم عن آخرهم " ص ٣٢٠ ، ٣٢١ .

ولقد قدر شابرول أحد مهندسي الحملة عدد جنود الحامية بـ ١٢٠ مقاتلا أما الكابتن ساباتييه أحد ضباط فرقة الجنرال فيال فيقدرهم بـ ١٦٠ مقاتلا .

وانتشرت الثورة في كل مكان ، يقول ريبو فى التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية الجزء الثالث : كان الجنود يعملون على إخماد الثورة بإطلاق الرصاص على الفلاحين وفرض الغرامات على البلاد ، لكن الثورة كانت كحية ذات مائة رأس كلما أخمدها السيف والنار فى ناحية ظهرت فى ناحية أخرى أقوى وأشد مما كانت .

وقال في موضع آخر : إن مصر قد فوجئت بالحملة الفرنسية ، فأخذت تنتفض وتجاذب للتخلص من قبضة الفاتح الحديدية ، لقد كنا نرابط فى مصر ونحتلها احتلالاً عسكرياً ، وعلى الرغم مما بذلناه من الجهود ليتقبلنا الشعب كما يتقبل محرريه فقد بقيت سلطتنا قائمة على القوة لا على الإقناع ص ٣٢٧ .

ولاحظ كلمة " محرريه " .

ومن أجل التحرير ، طلب نابليون من الجنرال دوجا القومندان الجديد للمنصورة بعد ثورتها " إخضاع بلاد مديرية المنصورة (عرفت

الدقهلية بهذا الاسم فى هذا العهد) وأخذ رهائن من كل قرية اشترك أهلها في الاعتداء على الجنود ، ثم إحراق القرى التى يرى أنها كانت أبلغ فى الاعتداء ، وأمر نابليون بفرض غرامة ثلاثة آلاف ريال على أعيان المنصورة عقابا لهم على سوء صنيعهم ، وفرض ألفى ريال على السيد على الشناوي أحد أعيان المدينة ، ثم ألفى ريال على القري التى اعتدت على الجنود " الوثيقة رقم ٣٢٠١ من مراسلات نابليون ص٣٢٤.

ومن أجل التحرير أوصى نابليون الجنرال دوجا : " بالقسوة على الثائرين وإخضاع البلاد الكائنة ببين المنصورة ودمياط إخضاعا تاما وأوصاه بتجريد القرى من السلاح وقطع الرؤوس وأخذ الرهائن. مراسلات نابليون الوثيقة رقم ٣٣٧٤ .

والتقى الجنرال اندريوس في دمياط الجنرال دوجا الذى جاءها من المنصورة بعد ما نصبه نابليون " قومندان" للمديريتين ، فتبين له أن مركز الفرنسيين مضطرب وأن سوء إدارة الجنرال فيال وقسوته كان لهما أثر فى اضطراب الحالة واختلالها ، فقد ثبت أنه كان يهاجم القرى الآمنة وهي مطمئنة لم ترفع السلاح فى وجه الفرنسيين ولا يفرق بينهم وبين القرى الثائرة ، وكان يصادر الأهالى ويرهقهم بالإتاوات والغرامات ، ونسب إليه بعض زملائه أنه احتكر تجارة الخمور فى دمياط " ص ٣٤١ .

أما سبيل المصريين لرفض التحرير ، فلم يكن فى كثير من الأحيان يستند إلى قوة السلاح بقدر ما كان يستند إلى قوة عزيمتهم . يصف الضابط جازلاس من ضباط كتيبة الجنرال داماس فى تقريره عن أحد المعارك : "لما وصلنا تجاه الجمالية . وهي قرية كبيرة قوية على الشاطئ الغربى من بحر أشمون (البحر الصغير) فوجئت السفن التى كانت تنقل الجنود بعاصفة من الأحجار والرصاص انهالت من أسوار البلدة وبيوتها . وفى الوقت نفسه رأينا جموعا من العرب والمماليك والفلاحين مسلحين بالبنادق والسيوف والعصى (الشماريخ) تهرع من الجهات المجاورة مسرعة إلى مهاجمتنا . وكان بعضهم راكبين الخيل وأكثرهم مشاة . فدهشنا لهذه الهجمة العنيفة . ولكننا لم نؤخذ على غرة . ونزلت الجنود حاملة سلاحها إلى البر الشرقى المقابل للقرية

وتـأهبوا للقتـال منتظـرين قـدوم الأعـداء (الأهـالى) . فرأينـا أكثـرهم شجاعة يغامرون بأنفسهم ويهجمون إلى أن يصبحوا فـى وسط جنودنـا .لكن الجنود حاربوهم ببسالة . وقد رأيت بنفسى جماعة من الفلاحـين ليس بيدهم سوي العصى يهاجموننا بحمـاس فيستشـهدون بـين أسنة رماحنا" ص ٣٣٣ .

هذه أمثلة بسيطة لما حدث فى بعض المدن والقرى .. وثمـة أمثلـة كـثيرة للبطولـة والمقاومـة فـى بـاقى المـدن والقـرى مـن أسـوان حتـى الإسكندرية .

هذه الروح التى عمت شـعب مصر فـى مدنـه وقـراهِ ، هـي التـى جعلت نابليون يغادر مصر ، بعد ثلاث سنوات ، مهزوما .. وقـد خبـا حلمه الذى لم يصرح به فى منشوراته ..

جاء إلى مصر .. بعد أن حقق انتصارات مدوية فى أوربا .. احتـلٍ ايطاليا وأراضي من النمسا .. وسيطر علـى البحـر الأدريـاتي .. وكـثيرا من الجزر الأيونيـة فـى البحـر المتوسط .. وظـن بقدومـه إلى مصر أنـه سيقطع الطريق على انجلترا إلى الهند ويشيد امبراطورية كبيرة .

لكن الإرادة المصرية خيبـت ظنـه وحطمـت آ مالـه .. فحـاول فـى الشام فكانت الهزيمة أيضا من نصيبه .. فعاد سريعاً إلى أوربا لتحقيـق أحلامه هناك .

التشابه بين الحملتين

أعود إلى أوجه التشابه الذى نوهت عنه فى بداية الحديث .

لويس جاء إلى مصر عام ١٢٤٩ باسم الرب .

ونابليون جاء إلى مصر عام ١٧٩٨ باسم رفع الظلم عن المصريين وإدخال السعادة عليهم.

لويس جاء يقود جيشا من خمسين ألف مقاتل ، وخسر ثلاثين ألفا ، وخرج مهزوما .

ونابليون جاء يقود جيشا من خمسين ألف مقاتل وخسر ثلاثين ألفا ، وخرج مهزوما .

يذكر كامل زهيرى فى مقدمته لكتاب الرافعي أن مينولى ج كريستوفر قال فى كتابه " بونابرت فى مصر " صفحة ٥٢٩ :

" كان لدي بونابرت فى يوليو ١٧٩٨ أكثر قليلاً من ٣٤,٠٠٠ جندي برى ونحو ١٦,٠٠٠ جندي بحرى وملاح فى مصر . وفى سبتمبر ١٨٠١ كان نحو ٢١,٥٠٠ جندي برى (منهم ٣,٠٠٠ مريض وجريح) فى طريقهم إلى أرض الوطن . ولكن الجنود البحريين والملاحين البالغ عددهم ١٦,٠٠٠ كانوا قد انكمشوا إلى ١٨٦٦ فقط . ومعني هذا أنه لم يعد من رجال الحملة الذين يزيدون على ٥٠,٠٠٠ سوي ٢٣,٠٠٠ أو أكثر قليلا بما فيهم ٣,٠٠٠ مريض .

وفى وسعنا أن نقول مطمئنين أن نصف رجال الحملة – بما فيهم البحريون – قد هلكوا أثناء الحملة سواء فى ساحة القتال أو من المرض. وأن عدة آلاف فقدوا بصرهم أو أصيبوا بعجز بدني " .

وإذا عزينا هزيمة لويس إلى تفوق مصر علمياً ، لاستخدامهم النار الإغريقية (علم الكيمياء) ونجاحهم فى تقويض أبراج الفرنسيين (علم الهندسة) .

فما القول وقد جاء بونابرت والمصريون يغطون فى سبات العصور الوسطي ، نتيجة الأسر العثماني ثلاثة قرون كاملة ، وبعد أن رحّلوا (العثمانيون) إلى الآستانة خير علمائهم وأمهر صناعهم . وكان فى

معية نابليون نخبة من العلماء فى شتي العلوم التى ترعرت فى عصر النهضة .

وإذا عزينا هزيمة لويس إلى بعض الأخطاء كتعجله الهجوم على المنصورة دون انتظار باقى جيشه ، وسلوكه الطريق إلى القاهرة عبر المثلث المائى الخطر (بحيرة المنزلة وفرع النيل إلى دمياط والبحر الصغير) فما القول وقد تفادي نابليون ذلك بسلوكه الطريق من الاسكندرية إلى القاهرة .

وإذا عزينا هزيمة لويس إلى بلاء فرسان المماليك فى معركة المنصورة ، فما القول وقد انكسرت شوكتهم بعد هزيمتهم أمام نابليون فى معركة امبابة الفاصلة .

ما ذكرناه آنفا عن الحملة الأولى، عوامل مساعدة أدت إلى سرعة هزيمة لويس (لم يكمل عاماً فى مصر) وتفادي نابليون لها قد أخر هزيمته بعض الوقت (مكث نابليون ثلاثة أعوام ..). لكن الإنسان لن يخطئ ، أن العامل الحاسم الذى أدي إلى هزيمة الحملتين ، والذى فاجأ كلاً من لويس وبونابرت ، ولم يكن فى حسابه ، كان المقاومة الشعبية

المرجعان :

- القديس لويس حياته وحملاته على مصر والشام – الطبعة الأولى – دار المعارف . ١٩٦٨ م. تأليف جون جوانيفيل . ترجمة : حسن حبشي .
- تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر – الطبعة الرابعة – مكتبة الأسرة . ١٩٩٨ م . تأليف : عبد الرحمن الرافعي .

حرب أكتوبر والاستراتيجية السياسية المصرية

حققت مصر انتصاراً في حرب أكتوبر عام ١٩٧٣ ، وأياً ما كان تقييمنا له، فهذا الانتصار لم يؤد إلى التمسك بحقوقنا الوطنية والإصرار على عدم وجود عدو على بوابتنا الشرقية ، وهذا لا يتأتي إلا باستعادة الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني في السيادة على كل فلسطين .

والذى حدث ، بعد هذا الانتصار ، هو الاعتراف بدولة اسرائيل ، والتعاون العسكرى مع الولايات المتحدة .

ومع أنه حدثت هزيمة في عام ١٩٦٧ ، واحتلت أراض للدول العربية المحيطة بإسرائيل ، فضلا عن باقى الأراضى الفلسطينية ، إلا أن مصر والدول العربية لم تعترف بالكيان الصهيوني ، وإن وافقت مصر على حق الحياة لإسرائيل بقبولها للقرار ٢٤٢ الذى رفضه الفلسطينيون وعارضه العرب ، ولم تتعاون مصر عسكريا مع الولايات المتحدة ، وظلت المقاطعة الاقتصادية العربية قائمة تجاه الشركات الأوربية والأمريكية التى تتعامل مع إسرائيل .

فكيف .. لم تستقم المعادلة .. ؟!

هل لأن مصر لم تنتصر فى حرب ٧٣ ؟

قال بعض المحللين السياسيين والعسكريين الإسرائيليين ، أن مصر عبرت إلى شرق قناة السويس بقواتها المسلحة ، وعبرت إسرائيل إلى الغرب بقواتها ، والنتيجة هي لا منتصر ولا مهزوم .

وقال آخرون أن الجيش المصرى لم يحقق انتصارا حازما علىالجيش الإسرائيلى ، ولكنه خرج سليما من الحرب ، عجزت اسرائيل عن تفكيكه والنتيجة هي التعادل .

ومن الجانب المصرى قال بعض الكتاب أن حرب أكتوبر تمثيلية ، الغرض منها التمهيد للاستسلام والاعتراف بإسرائيل ، والسير فى ركاب الولايات المتحدة . ويرى بعض المحللين أنها حرب تحريك وليست حرب تحرير ، أي تحريك الوضع العسكرى ، ومن ثم السياسى ، حتى يمكن التفاوض مع العدو الإسرائيلي للجلاء عن سيناء وباقى الأراضى العربية المحتلة .

ويذهب آخرون إلى أننا انتصرنا فى أول الحرب ، عشرة الأيام الأولى فى الحرب .. ثم حلت الهزيمة بعد يوم ١٦ .. أي بعد حدوث " الثغرة " .

لمحاولة تلمس الإجابة ، علينا أن نعي ما حدث يوم السادس من أكتوبر عام ١٩٧٣ .

عبرت القوات المصرية قناة السويس باتجاه الشرق واستولت على شريط من الأرض بمحاذاة قناة السويس بطول ١٨٠ كم وعرض يتراوح بين ١٢ كم ، ١٥ كم ، وأجبرت القوات الإسرائيلية على التراجع . ورغم عبور القوات الإسرائيلية إلى الغرب ، فلم تستطع أن تجبر القوات المصربة على التخلى عما حققته من مكاسب . واضطرت فى نهاية الأمر إلى الانسحاب إلى العمق فى الشرق .

وهكذا نجحت مصر فى تحرير جزء من التراب الوطني ، وكسرت إرادة العدو الذى رفض من قبل الانسحاب من شرق القناة ، حتى يمكن لمصر تشغيلها ، كما تمكنت مصر من تحرير منطقة آبار النفط فى جنوب سيناء ، و أن تغير الميزان العسكرى الاستراتيجي فى الشرق الأوسط .

وسوف يقودنا سبر غور أحداث هذه الحرب ، إلى اكتشاف نتائج أخرى حققتها ، لا تقل أهمية عما ذكرناه.

الحزام الأسود :

فى أوائل عام ١٩٧٣ زار الجنرال ديان وزير الدفاع الإسرائيلى فى هذا الوقت الجنرال ديفيد اليعازار رئيس أركان الجيش الإسرائيلي فى منزله بعد عودته من زيارة إلى واشنطن وعرض عليه خريطة عسكرية رسمها بيده :

" وفهمت على الفور أنه لكي تتحقق الخطوط التى رسمها ديان على

أوراق الخريطة ، وأطلق عليها اسم (الحزام الأسود) يحتاج إلى عدة عوامل أهمها :

أولاً : ضم جنوب لبنان كله إلى اسرائيل .

ثانيا : ضم أجزاء أخرى من جنوب سوريا وشمالها .

ثالثا : إنشاء خط محصن يشبه خط بارليف في غور الأردن لحماية المستعمرات .

رابعاً : تحويل سيناء كلها إلى مركز تجارب للمفاعلات الذرية .

وكان المعني الوحيد للأفكار التى طرحها أمامي ديان هو القيام بحرب أخرى مع العرب ، وفهم ديان هذه المعاني التى تدور فى ذهني .. لذلك أردف قائلا : أعتقد أنه بالإمكان تحقيق ذلك فى أواخر عام ١٩٧٣م .. ثم قال أن المسئولين فى أمريكا لم يوافقوا على هذا المشروع حاليا .. لكنهم أيضا لم يعترضوا .. ومعني ذلك أنهم تركوا لنا حرية التصرف ، والاختيار .. ثم لخص ديان أخيراً نتائج زيارته إلى واشنطن فى عبارة واحدة : لقد حصلنا على كل ما طلبنا بأكثر وأسرع مما كنا نتصور " [1] من مذاكرات اليعازار ص ٥٧ و ص ٥٨ .

وفى صفحة ٦٠ من نفس الكتاب يقول اليعازار : " وصلت الأسلحة التى طلبناها من الولايات المتحدة الأمريكية وفى موعد مبكر عن الموعد الذى تحدد قبل ذلك لوصولها .. واعتبر الجنرال ديان وزير الدفاع ذلك بمثابة هز الرأس بالموافقة دون نطق علىتحقيق ما يسعي إليه وهو شن ما يسميه بالحرب الوقائية الأخيرة على العرب ، وإقامة حزامه الأسود حول إسرائيل " .

وبعد ذلك " لبت مائير دعوة نيكسون ، وعادت من هذه الزيارة وهي أكثر انشراحا وأملا ، فقد حصلت على قرض غير مدفوع قيمته ٣٠٠ مليون دولار ، وعلى قرض طويل الأجل قيمته مليون دولار " المذكرات ص ٦١ .

وبدأ الإعداد :" فاتفقنا على التعاقد مع مئة طيار ممن هم من أصل يهودي، ولكنهم يقيمون فى أمريكا وبريطانيا وألمانيا الغربية .. لكي يأتوا إلى إسرائيل ، ويتلقوا تدريبات على طائراتنا ويكونوا جاهزين حينما نستدعيهم ، وكلف الجنرال ديان وزير الدفاع الكولونيل ابراهام دين للقيام

بهذه المهمة وتشكيل اللجنة الخاصة بتنفيذ ذلك " المذكرات ص ٧٤ .

وأرسلت قائمة بالأسلحة التى تريدها إسرائيل من واشنطن ، وبعد شهر واحد من إرسال القائمة وصلت أول شحنة ، وفى نفس الأسبوع وصلت شحنة أخرى " وبهذا نكون قد امتلكنا بالفعل أربعة أضعاف ما يملكه العرب من الأسلحة فضلا عن النوعية " المذكرات ص ٨٠ .

وفى نهاية الاجتماع الدورى للقيادة الاسرائيلية فى أول أكتوبر ١٩٧٣ ، قال ديان : " بعد عيدي الغفران والمظال سوف أقوم بتأديب المصريين والسوريين ، وسيكون الدرس الذى سأعطيه لهم قاسيا . وفيه أعلمهم كيف يتجرءون على القيام بهذا العمل ، وكان ديان مازال متحمسا للقيام بضربته الوقائية ليحقق من خلالها حزامه الأسود " المذكرات ص ٩٠ ، ٩١ .

وفى صباح الخامس من أكتوبر ١٩٧٣ عقد اجتماع طارئ لرئاسة الأركان حضرته السيدة / مائير قالت فيه :

" لقد آن الأوان لكى نؤدب العرب ، وكانت توجه كلامها لديان ، وكانت هذه العبارة .. تعني الموافقة ضمنا على أن يقوم ديان بتنفيذ خطته بشن حرب وقائية سريعة ، وخاطفة يصنع بها حزامه الأسود ، وعلى الفور أخرج الجنرال ديان الخرائط التى توضح خطته وتوقيتها والهدف المحدد منها ، ووضع الخرائط أمامنا ، وبدأ يشرح خطته " المذكرات ص ٩١ ، ٩٢ .

وكان ديان قد وضع خطته لاستدعاء ١٢٠ ألفا من جنود الاحتياط خلال ٤٨ ساعة وأن يكون موعد توجيه الضربة ما بين ٢٢ ، ٢٥ من أكتوبر ١٩٧٣ لكن إزاء تواتر أنباء عن حشود مصرية سورية ، قرر تقديم الموعد :

" وعادت مائير إلينا وكان الاجتماع ما زال مستمرا .. (يقصد اجتماع الخامس من أكتوبر) . وعدنا نقيم الأمور مرة أخرى على ضوء المعلومات الأخيرة . وسألت مائير ديان ما رأيه ؟ فصمت قليلا ثم قال إذن سأجعل ضربتي متقدمة كثيرا ، ستكون صباح الثامن من أكتوبر " المذكرات ص ٩٣ ، ٩٤ .

ويضيف اليعازار :

" وبعد الاجتماع وصلت إلى منزلى فى هذه الليلة استدعتني السيدة مائير إلى منزلها على عجل وأعادت معي تقييم الأمور ، وتسلسل الأحداث .

فأخبرتها بكل ما يراودني من وجهات نظر وأفكار ، وتخوفات ، وفى هذه الليلة قالت لى جولد مائير : لقد أعطيت الأوامر صريحة للجنرال ديان .. أعطيته الأوامر بأن يتحرك قريبا وينفذ خطته الوقائية " المذكرات ص ٩٥ ، ٩٦ .

وجاءت حرب أكتوبر متقدمة بيومين عن الموعد الإسرائيلي لشن الحرب.

الثغرة :

كيف بدأ التفكير في عمل اختراق على الجبهة المصرية ..

" اتفق قادة إسرائيل على أن الحالة الوحيدة التى كان يمكن أن تحول دون استخدام الإسرائيليين للقنابل الذرية ضد العرب فى حرب أكتوبر ٧٣ هي أن يتأكدوا بأي وسيلة كانت أن الجيوش العربية لن تقتحم حدود إسرائيل عام ١٩٤٨ . هذا التأكد كان من الممكن أن يتحقق من خلال وسيلتين أساسيتين :

الأولى : هي أن يتوافر لديهم ضمان سياسى لا يقبل الشك أن العرب لن يحققوا نصرا حاسما على إسرائيل فى هذه الحرب ، أما الوسيلة الثانية فهي أن يتمكنوا من تحقيق نصر عسكرى ما ، يغير الأوضاع فى ساحة القتال بالشكل الذى يجعل إسرائيل تشعر بالأمان ، وهناك الكثيرون من المراقبين السياسيين والخبراء والمؤرخين أكدوا أن إسرائيل حاولت الاستفادة من الوسيلتين معا . فقد حصلت على ضمان أمريكي صريح بحمايتها حتى لو أدي الأمر إلى اندلاع حرب عالمية تتورط فيها الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي . وفى نفس الوقت سعيت إسرائيل بكل قوة لكي تغير ملامح النصر المصرى الكبير فى سيناء بحيث لا يكون بوسع المصريين تهديد حدودها كما كان يعتقد القادة الإسرائيليون " .

ك . عشية التدمير [٢] — هوارد بلوم — ج أخبار اليوم — القاهرة ١٨ / ١٠ / ٢٠٠٣ .

وفى يوم ١١ أكتوبر فى الساعة الثالثة وعشرين دقيقة جرت مشاورات سياسية وعسكرية فى الحكومة الحربية المصغرة : " وقد حاول اليعازار خلال عدة اجتماعات جرت خلال ذلك اليوم صياغة الخيارات الماثلة أمام

الجيش الإسرائيلي لعرضها أمام الحكومة . قال أنه بالإمكان قبول بقاء الجيش المصري على طول الضفة الشرقية لقناة السويس . وإن هذا الإمكان هو الأكثر توفيرا من ناحية الخسائر فى الأرواح ، خيار آخر هو إعادة احتلال التحصينات المصرية الواقعة شرق القناة . لكن اليعازار أشار إلى أن هذا الخيار خطير وأن اسرائيل ستدفع جراءه ثمنا باهظا فى الأرواح . الخيار الثالث كان أن يتم عبور القناة واحتلال شريط على الضفة الغربية ، وذلك مقابل الرقعة التى سيطر عليها المصريون فى سيناء . وكانت تقديرات اليعازار أن الخيار الثالث رغم أنه ينطوي على خسائر فى الأرواح ، سيكون أسهل من محاولة إخراج القوات المصرية من الرقعة التى تمت السيطرة عليها في سيناء والتى يصل عرضها من ١٠-١٢ كم " تقرير نشرته جريدة يديعوت أحرونوت عن حرب أكتوبر – جريدة الأهرام – القاهرة – ٢٧ / ٨ / ٢٠٠٣ م .

ويقول اليعازار فى نفس التقرير :

" وضعنا يزداد سوءً يوما بعد يوم ، ومن هنا فإننى أعتقد أننا لم نحقق حسما . كما أننى لا أعتقد أن الجيش المصرى سيتفكك جراء عبورنا للقناة والطريق إلى القاهرة لن يكون مفتوحا لذلك فإننا ملزمون برأيى ، بإحراز وقف إطلاق نار ليس بعد يوم ١٤ من الشهر . هذا هو الموعد الأخير . هدف العملية هو الإسهام فى الحفاظ على سمعة الجيش الإسرائيلي وتقويض المصريين لكي يوافقوا على وقف إطلاق نار " .

ويؤكد بارليف ما ذهب إليه اليعازار بالقول فى نفس التقرير :

" البديل الحاضر ، وليس لدي اقتراح آخر هو عبور كتيبتين بقوة إلى الجهة الأخرى من قناة السويس ، لست واثقا من أن هذه العملية ستجعلهم يفكرون فى أنهم مستعدون لوقف إطلاق النار بشكل أو بآخر " .

ولقد تمكن الجيش الإسرائيلي من :

" الاختراق عبر فرقتين واحدة مشاة والأخرى مدرعات ، ولقد هاجم الإسرائيليون من نقطة قوية ، لأنهم لو هاجموا من نقطة ضعيفة فإنهم كانوا سيجدون أنفسهم محاصرين من قبل فرقتين قويتين ، وتمكموا من اختراق نقطة قوية وعبروا القناة "كتاب الأزمة – كسينجر – الحلقة ٣١ – الأهرام

— القاهرة .

ويقول كيسنجر في نفس الحلقة :

" أنه في صباح الثامن عشر من أكتوبر أعلنت اسرائيل أنها قامت بتدعيم الجسور التي بنتها عبر قناة السويس وبلغت عمق ١٢ كيلو مترا نحو الشمال وستة كيلو مترات نحو الجنوب " .

أي أن إسرائيل لم تستطع أن تحتل رقعة من الأرض توازي ما احتله المصريون من الشرق (بطول ١٨٠ كم وعرض من ١٣ — ١٥ كم) .. ومن ثم تكون المقايضة صعبة ، ننسحب من الشرق مقابل انسحابهم من الغرب ، أضف إلى ذلك أن ما احتلوه من أرض كان متداخلاً بين قواتنا ، حاولت اسرائيل تحسين وضعها ، فتقدم الجنرال شارون لاحتلال مدينة الاسماعيلية ففشل في ذلك . ارتد إلى باقي القوات وتقدموا لاحتلال مدينة السويس لتحسين أوضاعهم الدفاعية ومحاولة تهديد مؤخرة الجيش الثالث، وفشلت هذه القوات (ثلاث فرق مدرعة) في اقتحام السويس وأصبحت في وضع صعب بعد أن حاصرتها القوات المصرية :

" كيسنجر : إذا أراد السادات أن يؤذيكم ، ما كان سيطالب بانسحابكم من غرب قناة السويس . كان سيترككم هناك ، ويعلن عليكم الحرب ، ويستعدي عليكم المجتمع الدولي ، بأنه يريد تحرير أرضه .

مائير : لكننا نعرف أننا لا يمكن أن نستمر في المواقع التي سيطرنا عليها غرب قناة السويس "

(من محاضر اجتماعات كسينجر — مائير) جريدة " العربي " —القاهرة — ٥ / ١٠ / ٢٠٠٣ م

ولقد أشار المشير الجمسي [٤] في كتابه عن حرب أكتوبر أن الإسرائيليين انسحبوا من الغرب ، دون النص على ذلك في اتفاقيتي فض الاشتباك .

وأصبح وضع هذه القوات حرجا ، خاصة وقد عجزت عن تحقيق عمق في الأرض يسمح لها بالدفاع عن نفسها ، بعد وقف إطلاق النار ، ولم تحدث أى خلخلة في صفوف الجيش المصري كما كانوا يأملون ، ولم تنسحب قوات رئيسية من الشرق ، أما عن حصارهم للجيش الثالث ، فلن يتم إحكامه إلا بالاستيلاء على مدينة السويس وهو ما لم يتحقق ، وأحسن وصف لهذه

الحالة ، هو ما قاله الخبير الاستراتيجي العالمى ، الجنرال الفرنسى بوفر الذى زار مصر بعد الحرب ، وبحث الموقف على الطبيعة .. وتساءل من يحاصر من .. أي أن الإسرائيليين يحاصرون الجيش الثالث والمصريون يحاصرونهم ، واستطرد ، مجيبا على تساؤله .. تُعرف الإجابة عندما يُستأنف القتال وكان من رأيه أن الثغرة ليست عملية عسكرية بالمعنى المفهوم بل هي حركة تليفزيونية لرفع الروح المعنوية المنهارة للإسرائيليين.

وليس أدل على حرج وضع هذه القوات من تلويح القيادة الإسرائيلية باستخدام السلاح النووي إذا أقدمت مصر على تصفية الثغرة .. وتهديد كيسنجر للسادات أن البنتاجون سوف يتدخل لصالح إسرائيل فى حال تصفية الثغرة .. ولست فى حاجة إلى القول أن التلويح باستخدام السلاح النووى والتهديد بالتدخل الأمريكي .. لم يحدثا إلا لأن القوات الإسرائيلية كانت فى قبضتنا والنيل منها مؤكد .. وإلا لو كانت فى موقف قوي .. فلماذا التهديد لإنقاذها .. ؟!

وأعتقد أن هذا رد كاف .. على من يعد حدوث الثغرة هزيمة ، وهو فى حقيقته كما رأينا كان ينذر بكارثة لإسرائيل . بعد أن أصبحت قواتها رهينة فىأيدينا .. وأحب أن أنوه هنا أن الفرق الثلاثة فقدت الكثير من قدرتها ، فبعد معركة عبورها .. كانت قد خسرت ما يقرب من خمسين دبابة .. وبعد محاولة الاستيلاء الفاشلة على الاسماعيلية خسرت ثماني وأربعين دبابة أخرى وفى المحاولة الفاشلة لاقتحام مدينة السويس خسرت أربعين دبابة ، هذا عدا الخسائر فى الأرواح وباقى المعدات .. وما خسرته خلال حرب الاستنزاف بعد وقف إطلاق النار حيث لم تتوقف الغارات الجوية ، وهجمات قوات الصاعقة والمشاة .. أضف إلى ذلك أن الفتحة التىتمكنت من السيطرة عليها بين الجيشين الثاني والثالث لا تتعدي أربعة عشر كيلو مترا، ما أسهل إغلاقها حتى بطلقات المدافع وإحكام الحصار عليهم ، ومنع وصول مؤن أو ذخيرة إليهم عن طريق إمدادات طويل عبر سيناء ومن ثم القضاء عليهم ، عكس الأمر بالنسبة لطرق إمداد القوات المصرية ، والتى نجحت بتطويقهم بـ ٥٠٠ دبابة .. وكانت نسبة تفوقنا عليهم فى الدبابات والعتاد والرجال ٢ إلى ١. وأننا كنا فى سبيلنا لاستعادة

المبادرة إلى الهجوم (تصفية الثغرة) . بعد أن فقدناها طبقا لما يراه المشير الجمسى فى مذكراته عن حرب أكتوبر : أن المبادرة انتقلت إلى أيدي العدو بعد هذا التاريخ حتى الثاني والعشرين ، عندما توقف إطلاق النار . ولست فى حاجة إلى القول أن فقد المبادرة فى الأيام الأخيرة للحرب لا يعني الهزيمة ، بقدر ما يعني الانتقال من الهجوم ، لتحرير مزيد من الأرض إلى الدفاع للحفاظ على ما كسبناه ولاحتواء هجمات العدو المضادة ، والتى لم تنجح فى تحقيق أي تغيير استراتيجي ينال من الانتصار العسكري المصري الكبير .

ولنستمع إلى شهادة العدو ..ورد فى مقال الأستاذ إبراهيم نافع بجريدة الأهرام — القاهرة — بتاريخ ١٩ / ١٠ / ٢٠٠٣ :

الملف الذى كتبه رونين برجمان وجيل ملتسر فى صحيفة يديعوت أحرونوت (ملحق ٧ أيام) عن حرب أكتوبر بتاريخ الخامس من سبتمبر الماضى بعنوان " ١٢٠ ساعة فى أكتوبر " فقد جاء فيه أنه في يوم العشرين من أكتوبر كان قادة الجبهة طوال أيام القتال التى تلت العبور ينتظرون انهيار الجيش المصرى ، وكان كل منهم يشجع الآخر بلا توقف ، ويقول له إن هذا سيتحقق لا محالة . إلا أن هذا الانهيار لم يتحقق حتى نهاية الحرب . وسوف يتعلم جيش الدفاع الاسرائيلي هذا الدرس بأصعب الطرق .

ويستمر الأستاذ إبراهيم نافع قائلا :

سوف أنقل فقط ما كتبته الصحف الإسرائيلية عن سير المعارك على الجبهة المصرية . وبالتحديد المعارك التي دخلتها القوات التى كان يقودها شارون نفسه ، فقد جاء فى الملف الوثائقي الذى كتبه برجمان وملتسر فى يديعوت أحرونوت ، أنه فى العشرين من أكتوبر الساعة ١٥١٥ بدأ الهجوم ودخلت الكتيبة الجنوبية إلى منطقة مكتظة بقوات المشاة وتعرضت لنيران مضادة للدبابات من مسافة قريبة ، وبدأت الكتيبة الأخرى فى التقدم ولكن خلال أقل من نصف ساعة تعرضت هي الأخرى لنيران صواريخ ساجر ، ولم يتبق من دباباتها الست والعشرين إلا أربع دبابات فقط ، لقد تعرضت الكتيبة لخسائر فادحة ٢٤ قتيلا و ١٠ مفقودين و ٢٢ دبابة تم تدميرها .

ويختم الأستاذ إبراهيم نافع مقاله :

يقول برجمان وملتسر معدا الملف الوثائقى عن معركة مدينة السويس التى جرت فى محاولة لتحسين الوضع بعد بدء سريان اتفاق وقف اطلاق النار : " فى هذه المعركة المخزية التى لم يكن لها داع على الإطلاق قتل ٨٠ جنديا وأصيب ١٢٠ ، وهكذا انتهت حرب يوم الغفران على الجبهة الجنوبية .

المفاجأة :

هل أخذنا العدو على غرة فى حرب أكتوبر ، كما يوحي بذلك الخطاب الإعلامي المصرى . وإذا كنا فعلنا ذلك .. ألا يقلل ذلك من قيمة الانتصار المصرى .. تماما كما نقول عن هزيمة ٦٧ .. أننا لم نكن مستعدين لها .. ونصف جيشنا يحارب فى اليمن .. وكنا نهدف إلى انتزاع نصر عن طريق التعبئة الإعلامية .. التى تم فى ظلها المطالبة بسحب قوات الطوارئ الدولية من شرم الشيخ وإغلاق مضيق تيران فى وجه الملاحة الإسرائيلية .. وقد ظنت القيادة المصرية أنها أخذت العدو على غرة ، ثم اتضح أن العدو هو الذى أخذها على غرة ، وانتهز الفرصة وشن عدوانا مبيتا .. نعرف الكارثة التىنتج عنها من احتلال باقى فلسطين وسيناء والجولان .

إن كل الدلائل تشير إلى أن اسرائيل ، كانت على علم بما ندبر .

فقد ورد فى كتاب " حرب يوم الغفران ، لحظة الحقيقة " جريدة "القاهرة " فى ٧ / ١٠ / ٢٠٠٣ ، أن إسرائيل حصلت على الخطة المصرية لعبور قناة السويس قبل اندلاع الحرب بحوالى عشرة أشهر وتشير سطور الكتاب أيضا إلى أن إسرائيل كانت على علم أيضا بطبيعة التكتيكات المصرية حيث وردت هذه المعلومة المثيرة فى الكتابين السريين اللذين أصدرهما قسم الأبحاث فى شعبة الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية بخصوص الخطة المصرية لعبور القناة فقد تبين أن إسرائيل علمت مسبقا أن الجيش المصرى سيستخدم " صائدى " دبابات مسلحين بسلاح حديث مضاد للدبابات ولا سيما بصواريخ " ساجر " .

وفى اجتماع القيادة الاسرائيلية الدورى فى أول أكتوبر عام ١٩٧٣ أكد الياهو زعيرا رئيس المخابرات أن : الاحتمال قائم أن تقوم مصر وسوريا بعمل عسكرى ما " المذكرات ص ٩٠ .

وفي اجتماع القيادة الاسرائيلية في ٥ / ١٠ / ١٩٧٣ جاءهم بلاغ أن ٣٢٠ عائلة أجنبية تم ترحيلها من مصر سوريا ، وفي نفس الاجتماع " جاء اتصال عاجل من السفير الأمريكي يطلب مقابلة رئيسة الوزراء ، وقد أخبرنا أن شيئا ما سيحدث خلال الـ ٤٨ ساعة القادمة " المذكرات ص ٩٣ .

وفي نفس الاجتماع طبقا لما جاء في كتاب " لحظة الحقيقة " السابق الإشارة إليه تحدث اليعازار قائلا : " على أن أشير أن المنظومة الدفاعية للجيش المصرى وفق النظرة العسكرية الروسية هي منظومة هجومية أيضا ، ويمكن الانتقال منها إلى هجوم . لذا يجب الاستعداد بكافة الوسائل المطلوبة من أجل شن هجوم ، ونتيجة لذلك قمنا باتخاذ كافة وسائل التأهب المتبعة في هذا العيد (يقصد عيد الغفران) من خلال إلغاء الاجازات في كل الوحدات التالية على خطوط المواجهة ، وبشكل خاص في سلاح الجو الإسرائيلي والمدرعات ، حيث أنهما أعلنا حالة تأهب قصوى " . والآن لنستمع لصوت من داخل جبهة سيناء ، عشية الحرب .

" وخلال حفل أقيم في مقر القيادة الإسرائيلية في سيناء لوداع الجنرال ميندلر تحدث الجنرال الإسرائيلي إلى ضباطه قائلا : من المفروض أنني سوف أترككم ولكن أؤكد لكم أن موعد فراقنا لم يحن بعد فنحن في حالة استعداد قصوى كما أننا على وشك الدخول في حرب . وبينما كان الجنرال ميندلر يتحدث إلى ضباطه كانت طائرة استطلاع إسرائيلية متجهة غربا نحو القناة في مهمة لتصوير التحركات المصرية من ارتفاعات شاهقة " كتاب عشية التدمير " – جريدة الأخبار – القاهرة – ١٤ / ١٠ / ٢٠٠٣ . وقدر للجنرال أن يلقى مصرعه في حرب السادس من أكتوبر .

ولقد ورد في نفس الكتاب أن الملك حسين وصل إلى تل أبيب قبل الحرب في الخامس والعشرين من سبتمبر ١٩٧٣ وأبلغهم بما تستعد له مصر وسوريا ، وقال : " علمت من مصدر حساس جدا جدا في سوريا وهو مصدر سبق أن حصلنا منه على معلومات ومررناها أن كل الوحدات العسكرية التي كانت تقوم بتدريبات ومناورات في سوريا أصبحت خلال اليومين السابقين تقريبا في وضع استعداد للهجوم . ويشمل ذلك طائراتهم وصواريخهم وكل شئ آخر على الجبهة في هذه المرحلة . والآن يحدث ذلك تحت ستار

التدريبات ، ولكن وفقا للمعلومات التى سبق وأن حصلنا عليها فإن هذه أوضاع وتشكيلات تسبق التحرك لمهاجمة إسرائيل وكل الوحدات الآن فى هذه الأوضاع . ولا يعرف أحد ما إذا كان ذلك يعني أي شئ أم لا ولكن لدي شكوكي . إلا أن المرء لا يمكن أن يكون متأكدا فى مثل هذه الأحوال ، بل يجب عليه أن يتعامل معها كحقيقة .

وردت جولدا مائير على ذلك بقولها : من المفهوم أن السوريين قد يبدأون شيئا دون التعاون الكامل من جانب المصريين فرد الملك حسين : لا أعتقد ذلك . أعتقد أنهم يتعاونون " الأخبار - ١١ / ١٠ / ٢٠٠٣ . وصباح الخميس الرابع من أكتوبر توجه " زخاي زامير " رئيس الموساد إلى لندن والتقى العميل الملقب بـ " الصهر " وعلم منه أن المصريين والسوريين سوف يهاجمون اسرائيل فى وقت واحد بعد غروب الشمس يوم السادس من أكتوبر ، وفى إسرائيل كان الجنرال ديفيد اليعازار مشغولا بسلسلة من الاجتماعات " ففى الساعة الخامسة وخمسا وأربعين دقيقة (٤ أكتوبر) كان قد تلقى تحليلا من " الفرع ٦ " وهو مكتب تحليل المعلومات الخاص بمصر فى المخابرات العسكرية الإسرائيلية ، وكان هذا التحليل يركز على نتائج فحص صور عمليات الاستطلاع الجوي للخطوط المصرية . وكانت بداية التحليل كما يلى : من واقع فحص صور الاستطلاع الجوي يمكن أن نستنتج بوضوح أن الجيش المصري على جبهة القناة فى حالة تشكيل طوارئ وبحجم لم يسبق لنا رؤيته من قبل . واستمر تحليل المخابرات العسكرية لعدة صفحات يتناول تفصيل تحركات المدرعات والجنود والمدفعية ، ولكنه فى نهاية الأمر لم يقدم تقريرا حاسما ونهائيا . وربما لم تكن هناك ضرورة لذلك فقد كان تعليق موشى ديان بعد الانتهاء من قراءة هذا التقرير أو التحليل قوله : إن مجرد قراءة هذه الأرقام فقط كافية لكي تصيب المرء بالسكتة القلبية " . عشية التدمير - ج الأخبار - ١٤ / ١٠ / ٢٠٠٣ م .

فأي مفاجأة نتحدث عنها .. إنها المفاجأة الاستراتيجية .

فإزاء حالة التوتر فى جبهتى القناة والمرتفعات السورية وبعد اتصال سريع من اسرائيل للولايات المتحدة الأمريكية أكدت لهم :

" أن النية مؤكدة فعلا لدي مصر وسوريا للقيام بعمل عسكرى ضد

اسرائيل ولكن نوعية هذا العمل وكيفيته غير واضحة المعالم .. كما أن وقته ما زال بعيدا ، وإن حدث فالاعتقاد المؤكد أنه لن يكون ذا فاعلية تذكر " المذكرات ص ٩٠ .

أي أن العدو عجز عن قراءة نوايانا فيما نحن بصدد عمله .. فإذا أضفنا إلى ذلك .. أنه يملك أسلحة كما رأينا تساوي ما عند العرب مجتمعين أربع مرات .. ومتفوق فى سلاحي المدرعات والطيران .. فقد استبعد أن نشن حربا ضده وننجح فيها .

تلك هي المفاجأة .. وليس أخذ العدو على غرة .. لقد كان العدو على علم كامل بما نفعل .. وأصدر أوامره بالاستعداد .. بل إنه كان يستعد للهجوم فى الثامن من أكتوبر .. وليس أبلغ على استعداده لنا أنه شن هجوما مضادا تلى هجومنا وفشل .. وقام بضربة جوية ، بعد ضربتنا الجوية ولم تحقق أغراضها ..

أقول .. من هنا تأتي عظمة حرب أكتوبر .. أننا انتزعنا نصرا من عدو مستعد لنا تماما ، وعلى علم تام بتحركاتنا .. ومتفوق فى العتاد والسلاح ويحارب من خطوط مريحة بالنسبة له ومتمترس خلف مانع مائى فى الجنوب . وفوق المرتفعات السورية فى الشمال .

ويمتلك قوة عسكرية قدرها الخبراء فى الغرب عشية الحرب بالقوة العسكرية السادسة فى العالم ، بعد الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي وانجلترا وفرنسا وفيتنام .

يقول كلاوز فيتز فى مرجعه الهام " فى الحرب " :

يعمل الخداع والتضليل على استرخاء العدو طوال فترة الإعداد للحرب ، بحيث يكتمل الاستعداد دون أن يعرف العدو عنه شيئا .

ومن الواضح أن هذا لم يتم فى حالتنا ، فقد كان العدو مستعداً ، وكان يعرف تحركاتنا .

ويقول كلاوز فيتز :

وتختص المفاجأة الاستراتيجية ، أن يتم الإعداد للحرب فى سرية تامة عن طريق التضليل فى المعلومات ، بحيث يمكن إعداد القدرات الذاتية لتكون فى وضع يؤهلها للحرب ، ويقوم الإعلام بدور رئيسي فى تنفيذ

وتحقيق المفاجأة الاستراتيجية من خلال الحرب النفسية ونوعية المعلومات وتفسير هذه المعلومات من قبل العدو .

ولا شك أننا نجحنا في ذلك .. فقد ظل العدو حتى قبل ساعات من شن الحرب عاجزاً عن معرفة نوايانا الحقيقية .. وغير مصدق بقدرتنا على القتال .

نتيجة الحرب :

باستقراء ما ذكرناه سابقا يمكننا الآن إجمال نتيجة حرب أكتوبر ، وسوف يتضح لنا أن الأمر ليس مجرد الاستيلاء على قطعة أرض بحذاء قناة السويس ، ولكن الأمر أعمق من ذلك :

- استعادة أبار النفط في جنوب سيناء ، وانسحاب العدو من منطقة خليج السويس .
- انسحاب العدو إلى مسافة خمسة وثلاثين كيلو مترا داخل سيناء ، شرق المضايق .
- شرعت مصر في إعداد قناة السويس للملاحة .
- استعاد الشعب المصري روحه المعنوية العالية ، بعد الإحباط الذي لازمه منذ كارثة عام ١٩٦٧ وشرع في البناء وإقامة البنية التحتية للمدن .. وإصلاح الأراضي للزراعة .. وإنشاء المدن الصناعية الكبرى.
- منعت هذه الحرب الضربة الإسرائيلية التى كان مقدرا لها الثامن من أكتوبر ، والتى لو تمت .. لتعذر علينا الإفادة من سيناء بسبب الغبار والإشعاع الذريين ، ولكانت الضربة قاصمة على الجبهة العربية لدي لا يعلمه أحد ، حتى تقوم لنا نحن العرب قائمة ونناز إسرائيل مرة أخرى .
- أحيت هذه الحرب التضامن العربى ، الذى تمثل فى الاتفاق على تخفيض ضخ النفط إلى الغرب وحظره عن الولايات المتحدة وهولندا وقد بدأ هذا الحظر العربى فى ١٧ أكتوبر ١٩٧٣ واستمر لمدة خمسة أشهر متتالية .

ونتوقف عند هذه النقطة الهامة :

يقول الأستاذ / مجدي صبحي فى مقال بعنوان " صيحة أكتوبر ورجعها فى سوق النقط العالمى " – الأهرام – القاهرة – فى ٢٤ / ١٠ / ٢٠٠٣ :

بعض البلدان العربية المنتجة الرئيسية قد حاولت بالفعل قبل حرب أكتوبر أن تلفت نظر الإدارة الأمريكية إلى التدخل وإلا ستكون العواقب غير محمودة فى المنطقة التى تعد ذات أهمية حيوية لمصالح الولايات المتحدة وجميع البلدان الصناعية المتقدمة . فقد ذكر وزير النفط السعودي السابق الشيخ أحمد زكي اليماني أنه كلف من قبل الملك فيصل فى أبريل ١٩٧٣ بحمل رسالة للإدارة الأمريكية يذكر فيا أنه إذا استمرت الأوضاع على ما هي عليه فى الشرق الأوسط فقد لا يكون بمقدور المملكة العربية السعودية أن تستمر فى اتباع نفس السياسة النفطية . ولكن كانت النتيجة العملية أن الإدارة الأمريكية لم تقم بأي تحرك بناء على هذه النصحية المخلصة من قبل أكبر منتجي النفط فى المنطقة .ويستمر الأستاذ مجدي صبحى :

وكان على الإدارة الأمريكية وهولندا أن تنتظرا العبور المصرى فى أكتوبر لتصدقا أن العرب يمكنهم بالفعل أن يعدلوا جوهريا من سياساتهم النفطية . وبدأت هذه الدول تأخذ العرب مأخذ الجد حيث كانت غالب الدول الأوروبية تسارع لمحاولة شرح موقفها وإيضاح تمايز موقفها عن موقف الإدارة الأمريكية ، كما أعقب ذلك بدء الحوار العربى الأوربى كقناة للحفاظ على تفاهم عربى – أوربى مستمر بما ينسجم مع مصالح الطرفين .

وكانت النتائج الجوهرية على صعيد الصناعة النفطية أكثر من واضحة ففى مجال الأسعار ارتفعت فورا بمقدار أربعة أضعاف ليبلغ سعر برميل النفط العربى الخفيف نحو ١٢ دولاراً للبرميل . أما على صعيد الصناعة النفطية ذاتها فإن التغيرات كانت تمثل انقلابا كاملا على الأوضاع التى سادت الصناعة النفطية منذ اكتشاف النفط فى منطقة الخليج العربى قبل نحو أربعين عاما . حيث مهد سلاح النفط الأرض أمام جميع الدول المنتجة فى الأوبك لكي تفرض سيطرتها على مواردها النفطية فيما تبقى من عقد السبعينات .. ومن المؤشرات المهمة فى هذا الصدد أن نحو ٨٠٪ من الإنتاج كان يتم من قبل حقول تملكها شركات النفط الغربية خاصة الأمريكية لينقلب الوضع ليصبح الإنتاج من الحقول التى تمتلكها هذه الشركات

لا يتجاوز ١٠٪ بقليل . أما الشركات الوطنية التى تمتلكها البلدان النفطية فقد ارتفعت حصة إنتاجها من ٢٠ ٪ إلى نحو ٩٠ ٪ إضافة لذلك فإن الشركات العالمية لم تعد تقوم بالإنتاج فى ظل نفس الشروط التى كانت قائمة قبل أكتوبر ١٩٧٣ .

ويختتم الأستاذ مجدي مقاله بالقول :

إن حرب أكتوبر وما نجم عنها من تصحيح فى أسعار النفط مثلت الوقود اللازم لإشعال نار الدعوة لإقامة نظام اقتصادي عالمى جديد .

وتقول الدكتورة أميرة الشنواني تعليقا على قطع امدادات النفط :

" واستجابة لهذا الضغط أصدرت دول الجماعة الأوربية التسع — فى ذلك الوقت — بما فيها هولندا نفسها بيانا قاطعاً فى تأييد الحق العربى وقرار مجلس الأمن ، ومستنكراً احتلال اسرائيل للأراضى العربية بالقوة ".

وتقول الدكتورة فى موضع آخر من نفس المقال ..

" إن حرب العاشر من رمضان السادس من أكتوبر جعلت الكثيرين فى أوربا الغربية يشعرون بأن الجنرال ديجول كان على حق عندما فضل النظام الدفاعي لفرنسا عن حلف الأطلنطي ، وتمسك بالاستقلال النووى الفرنسى عن السيطرة الأمريكية . أما الولايات المتحدة فقد بدأت تتهم حلفاءها الأوربيين بأنهم أخلوا بالتزاماتهم فى حلف الأطلنطي عندما حرموها من استخدام قواعدهم لمساعدة إسرائيل والطريقة التى آثر معظمهم التنصل بها من الاشتراك فى الجسر الجوي الأمريكي لإسرائيل واتهمتهم بأنهم يسعون إلى تحرير أنفسهم من السياسة الأمريكية المؤيدة لإسرائيل حفاظا على مصالحهم فى استمرار تدفق البترول وخاصة وأن أوربا تحصل على ٨٠ ٪ من بترولها من الشرق الأوسط بينما الولايات المتحدة لا تحصل إلا على ١٠ ٪ من بترولها من هذه المنطقة " حرب العاشر من رمضان — الأهرام — ٣ / ١١ / ٢٠٠٣ م .

كما تسبب الحظر النفطي فى تغيير السياسة اليابانية ..

- عندما لوح العرب بخفض كمية واردات البترول القادمة إلى اليابان بنسبة ٢٥ ٪ وهو ما كان بمثابة صدمة قوية أدت إلى إحداث تغيير كبير فى نمط الحياة اليومية .

- وعلى الرغم من أن طوكيو توقعت أن تلقى تطمينات من واشنطن بأن شركات البترول الأمريكية الكبرى سوف تزودها باحتياجاتها البترولية خلال الأزمة . فإن وزير الخارجية الأمريكية هنرى كيسنجر رفض التعهد بإلزام هذه الشركات بالتعاون مع اليابان .
- وهو ما دفع الحكومة اليابانيه إلى إرسال نائب رئيس الوزراء ميكي تاكاو إلى قادة الدول العربية لإبلاغهم بأن طوكيو عدلت عن مساندتها للسياسة الأمريكية فى المنطقة وقررت اتباع سياسة مؤيدة للعرب فى نزاعهم مع اسرائيل .
- ولذلك قررت طوكيو اتباع سياسة موالية للعرب تمثلت أهم ملامحها فى دعم قرارى مجلس الأمن رقمي ٢٤٢ و ٣٣٨ اللذين يطالبان اسرائيل بالانسحاب من الأراضى العربية التى احتلتها عام ١٩٦٧ ، وانتقاد الاحتلال الاسرائيلي ، واحترام الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني فى إطار ميثاق الأمم المتحدة واعتبارات أمن الدول المجاورة ، وبالإضافة إلى ذلك اعترفت اليابان بمنظمة التحرير الفلسطينية وسمحت لها بفتح مكتب فى طوكيو عام ١٩٧٧ كما زادت المساعدات الاقتصادية بشكل مطرد إلى الدول العربية المواجهة لاسرائيل خاصة مصر . من مقال أحمد بهي الدين — الأهرام — ١٦ / ١٠ / ٢٠٠٣

لقد أثبتت هذه الحرب أنه بالإمكان هزيمة اسرائيل هزيمة نهائية ، فرغم أن الجانب العربى بدأ هذه الحرب فى ظل تفوق اسرائيلى ، ومساندة عسكرية وسياسية من الولايات المتحدة الأمريكية . لكن ، باستثمار ما يملكه جيدا ، مدعما بإرادة الشعوب صاحبة الحق والأرض ، وعدم التسليم بالتفوق العسكرى للعدو ، وأن هذا التفوق لن يعوق الجانب الأضعف — عسكريا — من استرداد حقوقه ، وانتزاع النصر . هذا النصر غير الميزان العسكرى الاستراتيجي فى الشرق الأوسط لغير صالح العدو.ولنستمع إلى حوار بين الرئيس الأمريكي نيكسون ووزير خارجيته هنرى كيسنجر :

ن : نحن الطرف الوحيد القادر على التأثير على إسرائيل .

ك : وهذه نقطة يجب توضيحها ، النقطة الأخرى هي أن الوضع

العسكرى قد تغير بالفعل نتيجة للحرب .

ن : قد تغير ؟ .. ما الذى تعنيه ؟

ك : القادة العرب سيقولون : وما الذى سيضمن لنا أنه بعد التوصل لاتفاق وقف إطلاق النار أنه لن تكون هناك حالة جمود ، وإحدى نقاط الرد عليهم ستكون أن الوضع قد تغير استراتيجيا ، ولم يعد بإمكان دولة واحدة ادعاء التفوق فى المنطقة وبالتالى لابد أن يعتمدوا على ..

ن : بمعني آخر ، وبشكل أساسى ، إن إسرائيل لم يعد بإمكانها ادعاء التفوق .

ك : صحيح وإن كنت لا أنصح بأن تتم صياغة الأمر بهذه الطريقة لكي .

ن : أنا أفهم . حسنا لدي الكلمة المناسبة (الوضع تغير استراتيجيا "

الأزمة — كيسنجر — الحلقة ٣٠ — الأهرام — ٥ / ١١ / ٢٠٠٣

فإذا كانت هذه بعض النتائج لما قامت به مصر ، عندما اقتحمت قناة السويس ، ودمرت خط بارليف واستولت عليه ، فإن السؤال يعود أكثر إلحاحاً .. لماذا غيرت مصر استراتيجيتها السياسية واعترفت بإسرائيل .. ؟ هل خذلها العرب .. ؟!

بعد كارثة ١٩٦٧ اجتمع العرب فى مؤتمر الخرطوم .. وأقروا الاستمرار فى اللاءات الثلاث : لا صلح ، لا اعتراف ، لا تفاوض . وأنشأوا صندوقا للدعم المالى لدول المواجهة مصر وسوريا والأردن ساهمت فى تمويله السعودية والكويت وباقى دول الخليج العربى . وكانت الأرض العربية عمقا استراتيجيا لمصر ، فبعد فقد الغطاء الجوى المصرى أبحر الأسطول المصرى إلى موانئ ليبيا ، ونقلت الكلية الحربية إلى الخرطوم .

كما تجلى التضامن العربى فىالناحية العسكرية فى حرب أكتوبر .. فقد قبلت سوريا أن تكون شريكا لمصر فى هذه الحرب وقامت القوات العراقية والسعودية بعبور الأردن إلى الأراضى السورية للدفاع عن دمشق لو تأزم الموقف ، واشتبكت القوات العراقية مع القوات الإسرائيلية فى بعض المواقع .

وقامت ليبيا بإمداد مصر ببعض الطائرات .

" نقل ٣٠ طائرة مقاتلة من طراز ميراج (V) والتى لها قدرة على القيام بمهام قتال أرضية خلال الشهر الماضى من ليبيا إلى مصر ، وقد بدأ الطيارون المصريون فى استخدام هذه الطائرات للقيام بعمليات جوية ، كما وصلت مصر نحو ست عشرة طائرة من طراز هوكر هانتر من العراق وعلى متنها طيارون عراقيون . ومن المتوقع وصول عشر طائرات مقاتلة أخرى من السعودية " . من الوثيقة رقم ١ – مجلس الأمن القومي الأمريكي – مطلع مايو ١٩٧٣ – الأهرام – ١١ / ١٠ / ٢٠٠٣

ويقال أن ليبيا سحبت طائراتها فى اليوم التالى للحرب ، وحتى لو حدث ذلك .. فقد كانت موجودة فى اليوم الأول وساهمت فى حماية سماء مصر وقت الضربة الجوية التى قامت بها طائرات السلاح الجوي المصرى بعدد كبير .. هذا وقد اشتركت الطائرات العراقية فى الضربة الجوية ، واستشهد بعض الطيارين العراقيين .

" وصرح مصدر مصرى بأن عدد الطائرات الميراج التى تم إرسالها من ليبيا بقيادة طيارين مصريين وصل إلى ٣٦ طائرة وأنها تعمل الآن على جبهة سيناء ونقلت الصحف عن المصريين إعلانهم أنهم أسقطوا تسع طائرات اسرائيلية يوم ١٥ أكتوبر " .من الوثيقة الأولى – وزارة الخارجية الأمريكية – التقرير رقم ٣٢ – الأهرام – ٢١ / ١٠ / ٢٠٠٣ .

وأثناء الاستعداد للحرب :

" يوم ١٩٦٩/٨/١٠ : لقاء وزير الحربية مع السفير السوفيتي لتوقيع اتفاقية تسليح معدات حربية قيمتها ٢٣٤٠٠٠٠٠جـ تدفع على سنتين كان تمويلها من ليبيا وشملت عربات مدرعة بجنزير ومعدات وأسلحة للتشكيلات الميدانية التى شكلت فيما بعد الاحتياطي التعبوىللجيشين الثاني والثالث " مذكرات الفريق محمد فوزي – م الوطن العربى الحلقة الخامسة – ١٩٨٥/١٢/٢٠ .

ولقد شاركت قوات برية من السودان والجزائر والكويت وفلسطين وحصلنا على دعم عسكرى من المغرب ، ومساندة من اليمن لإغلاق باب المندب فى وجه الملاحة الإسرائيلية .

ومهما قيل عن رمزية هذه القوات .. فوجودها كان يرفع من الروح

المعنوية للجنود المصريين .
كما قام الرئيس الجزائرى هوارى بومدين بزيارة إلى الاتحاد السوفيتي وعقد صفقة ، أحضر بموجبها خمسمئة دبابة بتمويل من السعودية ، وساهمت هذه الدبابات فى حصار القوات الاسرائيلية غرب القناة .
ومن محادثة بين كيسنجر والسناتور فرانك تشيرش فى كتاب "الأزمة" :
ت : وكنت أتساءل عن الخسائر التى لحقت باسرائيل فى الجو وما يمكن القيام به للمساعدة فى تعويض هذه الخسائر .
ك : لدينا مشكلتان يا فرانك . الأولى هي فى المساعدة والثانية أن البدء فى عملية نقل ضخمة للمعدات بينما المعركة دائرة هو أمر خطير .
ت : ولكن ماذا عن الفانتوم هل هناك من طريقة تمكننا من تسريبها لأن ما فهمته هو أن القوات المصرية والسورية تحصل على معدات بديلة بسرعة من حلفائهم العرب " . الأهرام – ٢٥ / ١٠ / ٢٠٠٣
هل خذلنا الاتحاد السوفيتي .. ؟!
يقول سامي شرف الوزير برئاسة الجمهورية بعد زيارة لموسكو قبل الحرب :
" وعندما عدت إلى مصر أبلغت الرئيس السادات كتابة وشفهيا بنتائج مهمتي فى الاتحاد السوفيتي ، والأوراق مودعة فى أرشيف الرئاسة ، وكانت النتائج مبهرة حيث وافقت القيادة السوفيتية على إمداد مصر بطائرات ميج بعيدة المدى وطائرات استطلاع بعيدة المدى وصواريخ مضادة للطائرات متقدمة ، كانت تنقص القوات المسلحة لإكمال خط الدفاع كله على القناة مع العمق المصرى " عبد الله السناوى – صدمة الفريق الشاذلى – جريدة العربى – القاهرة – ١٤ / ١٢ / ٢٠٠٣ م .
ولعله من المفيد أن نذكر ما أدلى به كيسنجر فى كتابه " الأزمة " وهو لا يمكن أن يجامل الاتحاد السوفيتي عدوه اللدود فى هذا الوقت .
من محادثة بين كيسنجر والسفير السوفيتي دوبرنين فى كتابه الأزمة" :
ك : وردت للولايات المتحدة تقارير تشير إلى البدء فى جسر جوي ضخم

لنقل معدات سوفيتية إلى مصر وسوريا .

د : جسر جوي .

ك : جسر جوي أستطيع أن أعطيك أعداد وأنماط الطائرات . ولكني متأكد أن جريشكو (وزير الدفاع السوفيتي) يعرفها جيدا " الأهرام ٢٧ / ١٠ / ٢٠٠٣ م .

وفي موضع آخر :

ك : واشنطن لا تزال تصر على صحة هذه التقارير وأن قيام السكرتير العام (برجنيف) بإرسال خطاب للجزائر (يحثها فيه على المشاركة في الحرب) لم يسعدنا .

ويضيف كيسنجر :

أنه في نفس اليوم علمت واشنطن بوصول عشرين طائرة سوفيتية إلى سوريا وكذلك تحريك فرقة سعودية إليها " الأهرام ٢٧ / ١٠ / ٢٠٠٣ .

وفي اليوم السابع للحرب :

" وفي الساعة ١٢,٥٥ ظهرا تجرى المحادثة التالية بين كيسنجر وهيج الذى يبادره بالسؤال عن مؤتمره الصحفي كما يبلغه بتطور خطير وهو أن الاتحاد السوفيتي قد رفع حالة الاستعداد لثلاثة من فرقه المحمولة جوا " الأهرام — ٢٩ / ١٠ / ٢٠٠٣ .

وفي يوم ٢١ أكتوبر :

" ويقول كيسنجر أن الولايات المتحدة علمت من مصادرها الخاصة أن السوفيت رفعوا حالة الاستعداد بين سبع فرق من فرقهم الإحدى عشره المحمولة جوا " الأهرام — ٩ / ١١ / ٢٠٠٣ .

وفي موضع آخر :

" وفي اعتراف نادر يقول كسينجر أنه اضطر إزاء الموقف الدولى وتهديدات الاتحاد السوفيتي أن يتصرف كوزير خارجية الولايات المتحدة أولا وليس كطبيب نفسي لاسرائيل في مواجهة مشاعرها بالصدمة والإهانة بسبب الهزيمة التى لحقت بها " الأهرام — ١٢ / ١١ / ٢٠٠٣ م .

وفي استعراضه لاجتماع مجموعة العمل الخاصة ليلة ٢٤ — ٢٥ أكتوبر يقول كيسنجر :

" كما وردت تقارير أخرى عن رفع حالة الاستعداد بين قوات ألمانيا الشرقية وارتفاع عدد السفن السوفيتية فى البحر المتوسط إلى خمس وثمانين سفينة وتحرك فرقة بحرية سوفيتية مكونة من ١٢ سفينة بما فى ذلك سفينتان برمائيتان إلى الاسكندرية " الأهرام — ١٥ / ١١ / ٢٠٠٣ .

ويقول فى موضع آخر :

" وصلت المزيد من التقارير الخاصة باحتمال تحريك ثمانية طائرات سوفيتية تكفى كل منها لحمل ٢٠٠ مقاتل من بودابست إلى مصر خلال ساعات وتأكيد رفع حالة الاستعداد بين قوات ألمانيا الشرقية بدءً من الساعة الخامسة صباحاً بتوقيت واشنطن " الأهرام — ١٥/ ١١/ ٢٠٠٣ .

وفى الوثيقة التى تحوى تقرير موقف رقم ٣٦ يوم ١٧ / ١٠ / ١٩٧٣ — عن وزارة الخارجية الأمريكية — مركز العمليات :

" تضمنت مجهودات الاتحاد السوفيتي حتى كتابة هذا التقرير من أجل إعادة تزويد الترسانة العربية القيام بـ ٤٠٠ رحلة جوية وما يزيد على خمسة آلاف طن من معدات الحرب .

وهناك تقارير تفيد أيضا قيام السوفيت بعمليات امداد عن طريق البحر. وهناك إشارات إلى أن رئيس الوزراء السوفيتي كوسيجين قد يقوم بالسفر إلى القاهرة اليوم " الأهرام — ٢٢ / ١٠ / ٢٠٠٣ م .

ومن كتاب " الأزمة " نستمع إلى محادثة لكيسنجر مع دوبرنين فى التاسع من أكتوبر الساعة ١١,٢٩ صباحا :

ك : أنا تولى لقد وصلتني للتور رسالة من عمان .

د : ما محتوى الرسالة ماذا يحدث هناك .

ك : تقول أن القائم بالأعمال السوفيتي طلب رؤية الملك حسين وتم استقباله هذا الصباح وقال القائم أن السوفيت يساندون العرب بالكامل فى صراعهم مع اسرائيل . وقال أن الاتحاد السوفيتي يعتقد أن كل الدول العربية يجب أن تدخل المعركة الآن . والملك يعتبر هذا طلبا سوفيتا منه لأن يرسل جيشه للعمليات " .

وبعد قليل يصرح كيسنجر :

" وفى ساعات الصباح تلقينا معلومات إضافية أن موسكو وجهت نصائح

بنفس المعني للرئيس الجزائرى هوارى بومدين " الأهرام — ٢٥ / ١١ / ٢٠٠٣ م .

أكتفى فى بهذا القدر .. فمن الواضح أن السوفيت لم يخذلوا الجانب العربى وقت الحرب ، أما أثناء الاستعداد لها ، يقول الفريق أول محمد فوزي فى مذكراته :

" الاستجابة السريعة والفعالة من القيادة السوفيتية والعسكرية لإمدادنا بالآتي :

أ. تطبيق المطالب الفنية وليدة الخبرة القتالية الجوية إلى تصميمات عملية فى الطائرات السوفيتية الميج ٢١ م — الميج ١٧ — السوخوى ٧ لرفع كفاءتها القتالية فى المدي وفى التسليح وفى المناورة بحيث تغطي مطالب العمليات الحالية والمقبلة فى مسرح عملياتنا .
ب. تزويدنا بالمعلومات الاستراتيجية والتعبوية والتكتيكية عن مسرح عمليات العدو (إسرائيل) بصفة مستمرة من صور القمر الصناعي السوفيتي .
ج. ج تزويدنا بخبرة حرب فيتنام خاصة فى مجال الطيران والدفاع الجوي .
د. تمكين طيارينا بالاشتراك فى العمليات الاستطلاعية الاستراتيجية لمسرح عملياتنا .

ويقول الفريق بعد قليل :

" ركز الاتحاد السوفيتي مساعداته لمصر عقب هزيمة ٦٧ مباشرة عبر جسر جوي وبحرى كثيف استمر أكثر من عشرين يوما عززته بعض الدول الشرقية والعربية أيضا ، وتمكنت مصر على أثره من استعواض خسائرها من معدات وأسلحة كما نجحت فى إقامة أول نسق دفاعي عن غرب القناة معززاً باحتياطي مدرع فى نوفمبر ٦٧ . واستمر الاتحاد السوفيتي فى امداد الوحدات والتشكيلات الجديدة التى بدأت مصر فى إنشائها وتجميعها بالأسلحة والمعدات . كما ساهم المستشارون فى إعداد وتسليح وتدريب هذه التشكيلات إلى أن حصل الرئيس عبد الناصر فى يوليو ٦٨ على صفقة كبيرة

قيمتها أكثر من ٣٠٠ مليون جنيه ، ثم على أثرها استكمال تسليح وإعداد التشكيلات الميدانية الجديدة والتى أنشئت تلبية لمطالب الخطة ٢٠٠ والتى تمت الموافقة عليها هذا العام وهي الخطة التى تستهدف تحرير سيناء " الحلقة ٥ م الوطن العربى ١٩٨٥/١٢/٢٠ .

وأضيف إلى ذلك القرار الهام التى اتخذته الدول الأفريقية بقطع العلاقات الدبلوماسية مع اسرائيل ، وبعض القرارات التى اتخذتها الدول الإسلامية لدعم الحق العربى .. وما أدي غليه ذلك من عزلة اسرائيل ..

وأعود إلى سؤالنا مرة أخرى ..

أزعم أن الإجابة على هذا السؤال ، هو أن مصر غيرت سياستها ، التى ظلت قائمة منذ قيام اسرائيل فى عام ٤٨ وحتى حرب ٧٣ ، والتى أكد عليها مؤتمر الخرطوم ، بعد كارثة حرب ١٩٦٧ ، لا اعتراف ، لا تفاوض، لا صلح .

وبدلا أن تؤدي حرب إكتوبر إلى مزيد من الصلابة فى مواجهة العدو الأمريكو اسرائيلي ، حدث العكس .. اعترفنا باسرائيل ، وأدي ذلك إلى التبعية للولايات المتحدة راعية اسرائيل .

وفى ظل تغيير الاستراتيجية السياسية ، لم يكن غريبا أن تقبل مصر وقف إطلاق النار ، قبل التشاور مع الحليف السورى ، وتخلت القيادة المصرية عن حليفها السوفيتي ، وقبلت ، بل طلبت أن ينفرد الأمريكيون بحل القضية ، الأمر الذى أدهش كيسنجر نفسه .

" وكانت الإشارة إلى خطاب مستشار الأمن القومي المصرى حافظ اسماعيل الذى أرسله نيابة عن السادات — والذى أشار له الزيات أيضا فى وقت سابق من اليوم أحد الأسباب وراء اعتقادنا أننا فى موقف يسمح لنا بالسيطرة على ايقاع العملية الدبلوماسية . ففى أول أيام الحرب ، اتخذ السادات خطوة غير معتادة بالاتصال بنا . وفى رسالة موجهة لى عبر القنوات الاستخباراتية ، أخبرنا اسماعيل بشروط مصر من أجل انهاء الحرب . ولم تكن هذه الشروط مقبولة حيث طالبت بانسحاب اسرائيل إلى حدود ١٩٦٧ . ولكنه كان من الواضح أن هذا هو الموقف المبدئى . وكان الاتصال بنا يمثل مخاطرة فى حد ذاتها . ولم يكن فى استطاعة السادات المخاطرة باستبعاد

سوريا وربما الاتحاد السوفيتي — والذى كانت مساندته ضرورية من أجل الاستمرار فى الحر ب— من خلال التعجيل بتقديم تنازلات كان من شأنها دفع سوريا إلى التخلى عن المعركة المشتركة وأن يقوم الاتحاد السوفيتي بتخفيض امداداته . ولكن ما كان مهما هو حقيقة وصول الرسالة وليس محتواها ، فالسادات كان يدعو الولايات المتحدة لتتولى مسئولية السلام ، وذلك على الرغم من أن موقفنا فى الأمم المتحدة كان يقوم على قيامه بالتخلى عن الأراضى التى تمكن جيشه للتو من الاستيلاء عليها . وتضمنت الرسالة تعهداً أظهر أن السادات كان يعرف جيدا حدود ما يمكنه الحصول عليه . وقالت الرسالة : نحن لا ننوي تعميق الاشتباكات أو توسيع المواجهة . وإن كان لهذه الجملة أي معني ، فهو أن مصر لم تكن تنوي مواصلة عمليات الهجوم للاستيلاء على المزيد من الأراضى " الأزمة — كسينجر — الأهرام — ١٩ / ١٠ / ٢٠٠٣ .

وبوصول القضية إلى أيدي الأمريكيين ، وانفرادهم بها ، أمكنهم تحويل النصر العسكرى إلى هزيمة سياسية ، أي الاعتراف باسرائيل ، وتهميش دور الاتحاد السوفيتي ، الذى أمدنا بالسلاح ، وها هو كسينجر يتماهي سعيدا :

" نحن نحقق انتصارات كبيرة ولكن الضغوط الضخمة ستأتي عندما نبدأ فى مفاوضات السلام " ويقول نيكسون بعد قليل :

" ن : إذا قارنا ما حدث بالأزمة الكوبية فسنجد أن الروس لم يكن من الممكن أن يقوموا بالاتصال بكنيدي . ولكنهم فى الشرق الأوسط فعلوا ذلك . وبعد قيامنا بتحريك طائراتنا لم يعد أمامهم خيار .

ك : هذه نقطتي الرئيسية (تحقيق انتصار على السوفيت) .

ن : لا شك أنهم أدركوا أن الأمر تطلب بعض الشجاعة للقيام بذلك .

ك : لا يوجد شك . لقد كان انتصارا رائعا .

ن : إن الاتفاق الذى تفاوضت للتوصل إليه كان رائعا . وتغيير الصياغة إلى الاكتفاء بمطالبة الأطراف (بدلا من إلزامهم) كانت جيدة للغاية . الأزمة — كيسنجر — الحلقة ٣٣ — الأهرام — ١٠ / ١١/ ٢٠٠٣ .

وأخذ الاعتماد على الولايات المتحدة يزداد :

" وفي وقت متأخر من ١٥ / ١٠ / ١٩٧٣ رد حافظ اسماعيل مستشار السادات على رسالتي التى أخطرته فيها بالجسر الجوي وأكد اصرار مصر على الحفاظ على قناة الاتصال الخاصة ، وأنه لا يوجد طرف آخر بإمكانه التحدث باسم مصر فى إشارة إلى موسكو كما نفى اسماعيل نية مصر إهانة اسرائيل لأن مصر ذاقت طعم الإهانة .

وبعد ذلك حدث التراجع :

" أشار إسماعيل إلى موضوع الجسر الجوى قائلا أنه غير مقبول مثل كل مبيعات الأسلحة السابقة إلى اسرائيل . ولكنه لم يركز على هذا الأمر . ولم يهدد بأية عواقب . ولكنه ناشدني بدلاً من ذلك مضاعفة جهودي لربط الحل العسكرى بحل سياسى . ولدهشتي الشخصية وجه لي الدعوة لزيارة مصر . إن مصر سوف ترحب بالدكتور كيسنجر تقديراً لمجهوداته " الأزمة — الحلقة ٢٩ — الأهرام — ٤ / ١١ / ٢٠٠٣

ويعلق كيسنجر على الرسالة رقم ٢ من السادات ، التى أكدت مطالبة مصر بتوفير قوة دوليةمن مجلس الأمن لمراقبة وقف اطلاق النار . بدلا من الاقتراح السابق بإرسال قوة سوفتية أمريكية .

" أن هذه الرسالة كانت تعني أننا كنا على وشك كسب اللعبة الدبلوماسية . فبدون المساندة المصرية كان من غير المتوقع كثيرا صدور قرار من الأمم المتحدة يطالب بقوة أمريكية — سوفيتية . وإذا أرسل السوفيت قوات فذلك سيكون إجراءً انفراديا من دون موافقة الدولة المضيفة أو الأمم المتحدة . كما أظهرت (الرسالة) أن السادات كان يراهن بمستقبله على المساندة الدبلوماسية الأمريكية بدلاً من الضغط العسكرى السوفيتي " الأزمة — كيسنجر — الحلقة ٣٦ — الأهرام — ١٥ / ١١ / ٢٠٠٣

ولعل هذا الانتصار الذى حققه كيسنجر ، انفراده بالحل وإزاحة الاتحاد السوفيتي ، نتيجة تغيير استراتيجتنا السياسية ، هو ما جعل قادة العدو الاسرائيلي يصرحون أنهم انتصروا فى حرب أكتوبر ، لا يقصدون النصر العسكرى ، ولكن يقصدون النصر السياسى ، فلطالما حلموا بالاعتراف بكيانهم الصهيوني وإقامة علاقات معهم .

وإذا كان كسينجر قد ذكر فى كتابه الأزمة ، أن الاسرائيليين يحققون

انتصاراً ، بعد عبورهم إلى غرب قناة السويس ، فالمقصود هو انتصار فيٍ معركة محلية لتحسين موقفهم عشية التفاوض على وقف اطلاق النار بدلا أن يذهبوا إلى المفاوضات صفر اليدين .

ولنستمع إلى حديث مائير وكسينجر في اجتماعهما بهيرتزيليا يوم الاثنين ٢٢ / ١٠ / ١٩٧٣ :

" م : ولكنه لا يعيش في عالم الواقع (السادات) إنه يعتقد أنه انتصر ولدينا مصدر هناك أخبرنا أنه عندما يتحدث السادات عن ضرورة استعادة الأرض لو كلفه ذلك مليون رجل فإنه يعني ذلك بالفعل .

ك : كيف يمكنه الاعتقاد أنه انتصر ؟

م : في ذلك اليوم عندما حدثت نقطة تحول .

ك : الأحد .

م : بارليف قال لى أنه لا يوجد لدينا ما نخشاه .

ك : دعيني أقول لك الحقيقة الموضوعية وما أعتقده في هذا الشأن . لقد انتصرتم في الحرب ولكن من خلال دفع ثمن باهظ للغاية . الحقيقية الموضوعية هي أنه على مدى ست سنوات تم منح المصريين أكثر الأسلحة وأجهزة الاتصالات تطوراً ولكنهم لم يحققوا أي شئ . الآن لديك الضفة الغربية من القناة . كما أنهم والسوريين خسروا آلاف الصواريخ .

م : الروس يقومون بتزويدهم مجددا .

ك : ولكن هذا لا يغير الموقف الأساسي . الأزمة " الأهرام ١٦ / ١٠ / ٢٠٠٣ .

وإذا استعرضنا آحاد حرب أكتوبر والتي تعترف مائير في إحداها بحدوث تحول لصالحنا ، أي انتصار ، نجد أن الأحد الأول ٧ أكتوبر ، لم تكن رءوس الكباري المصري على الضفة الشرقية قد تمت بعد . أما الأحد الثاني فقد تم ذلك وفشلت الهجمات الإسرائيلية المضادة لإزاحتها ، واعترف قادتهم أن ذلك بات مستحيلا ، وبدأوا يفكرون في الاختراق . والأحد الثالث هو ٢١ أكتوبر ، وكان وقتها كيسنجر في موسكو للتفاوض على وقف إطلاق النار ، وكانت القوات الإسرائيلية أمام مدينة السويس ،

وليس معقولاً أن يكون هذه الموقف نقطة تحول فى صالح السادات ، ويصبح واضحا أن مائير وكسينجر يقصدان الأحد الثاني .. لكن كيسنجر يحاول التخفيف من هذا الأثر ولاحظ أنه لا يتحدث عن الثغرة عندما يقول لمائير أنها حققت انتصارا ، ويتجاهل وجود جيشين مصريين على الضفة الشرقية للقناة ، ويتحدث عن الحقيقة الموضوعية .. فيطمئنها أنه عندها الضفة الغربية وهو أول من يعلم أن الضفة الغربية ليست تحت السيطرة الإسرائيلية فمن الإسماعيلية حتى بورسعيد ، لا يوجد عسكرى إسرائيلي واحد .

ومن بحيرة التمساح حتى السويس الوجود الإسرائيلي دون عمق وقواتهم متداخلة مع قواتنا ، كما يتجاهل عجز الإسرائيليين عن اقتحام مدينة السويس .. ثم يتحدث عما لم نفعله طوال ست سنوات ، متناسيا أننا طوال هذه السنوات كنا نستعد لهذه الأيام .. ثم ينحرف بالحديث ، كأنه يعزي مائير ، عن خسارتنا الصواريخ .. ولكن مائير تدرك أن هذا لا يعني شيئا .. فسوف يعوضوهم الروس عنها ، وكسينجر يُعد ما لم نسعي إلى تحقيقه بالحرب ، أي إجلاء اسرائيل عن باقى سيناء ، بمثابة نصر ..

إن كسينجر هنا يتحدث عن حقيقة موضوعية ، وعما يعتقده .. وليس عما حدث على الأرض .. وهو حر فيما يعتقده .. لكن ما يهمني هنا .. هو محاولته التهوين من أجل ما حدث عسكريا .. لينتهي إلى الكسب السياسى.

ويلاحظ فى هذا السياق ، أن مصر سبق أن أحرزت نصرا سياسيا رغم الهزيمة العسكرية . ففى حرب ١٩٥٦ احتلت بريطانيا بورسعيد ، واحتلت فرنسا من بورفؤاد ، ، وانفسح المجال أمام اسرائيل لاحتلال سيناء ، بعد انسحاب الجيش المصرى منها ، للدفاع عن مدن القناة ، وحتى لا يقع بين شقى القوات الأنجلو فرنسية والقوات الاسرائيليه .

تمكنت مصر من النصر السياسى ، لأنها تمسكت باستراتيجيتها السياسية الصحيحة ، وهي عدم الاعتراف باسرائيل ومعاداة القوى الاستعمارية ، وحظيت بمساندة الشعوب العربية . وكافة شعوب العالم التى رفضت العدوان ، وكذا مساندة المعسكر الاشتراكي وعلى رأسه الاتحاد السوفيتي وإن لم يخل الأمر من تقديم تنازلات ففى تسوية فبراير ١٩٥٧ ،

قبل الانسحاب الإسرائيلى :
١- استخدام اسرائيل لمضايق تيران وخليج العقبة . ٢- تمركز قوات الطوارئ الدولية فى شرم الشيخ وعلى طول الحدود المصرية مع اسرائيل.٣- إقامة منطقة منزوعة السلاح بعرض ١٠ كم على الجانب المصرى من الحدود. ٤-التعهد بمنع العمليات الفدائية من قطاع غزة .
وقبل ذلك كان الصمت التام عن المطالبة بقرية أم الرشراش التى استولى عليها الكولونيل اسحق رابين عام ١٩٤٩ وأنشأت عليها اسرائيل بعد أن ضمت لها قرية أردنية بنفس الاسم ميناءً تطل منه على خليج العقبة ، أطلقت عليه في يونيو ١٩٥٢ اسم إيلات مستوحية الاسم من جزيرة أيلة فى الخليج.وبعد ذلك توالت التنازلات : عدم المطالبة بتعويضات عن الخسائر البشرية والمادية فى حروب مصر مع إسرائيل ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ والاستنزاف.

- عدم المطالبة بعودة قطاع غزة إلى الإدارة المصرية .
- عدم العمل على تقديم مجرمي الحرب الإسرائيليين للمحكمة الجنائية الدولية لقتل وتعذيب الأسرى المصريين ، خاصة فى حربى ٥٦ ، ١٩٦٧ ، وعدم المطالبة بالتعويض المناسب .
- السكوت عن سرقة المياه المصرية من هضبة التيه ووادي الجرافة فى سيناء عن طريق طلمبات للشفط من صحراء النقب .
- السكوت عن تفجيرات اسرائيل النووية تحت سطح الأرض فى النقب والتي ظهرت أثارها المدمرة للبيئة فى البحر الأحمر .

وللأسف سار العرب فى ركاب السياسة المصرية ، ففى الاجتماع الذى عقد فى البيت الأبيض فى الساعة ١١,٣٠ صباحا في أحد أيام حرب أكتوبر بين الرئيس نيكسون وكيسنجر ووزراء الخارجية العرب السعودي عمر سقاف والمغربى أحمد بن هيما والكويتي صباح الأحمد الصباح والجزائرى عبد العزز بوتفليقة وتحدث السقاف نيابة عن الأربع وأنهم جميعا يتحدثون نيابة عن ١٨ دولة عربية :
" نحن نؤمن بأن العالم لم يشهد من قبل عرضاً معقولا مثل ذلك الذى قدمه السادات أمس ، وهذا العرض يوفر فرصة جيدة للولايات المتحدة للبدء فى أخذ خطوات للقيام بما هو صحيح بالنسبة للعرب .
إن اسرائيل الآن تتلقى المساعدة من الولايات المتحدة من خلال القوة ، وإسرائيل لا تواجه خطر الزوال من قبل العرب ، والعالم العربى ينظر إلى مساعدتكم لاسرائيل كعمل عدائى ، ونحن لا نريد أكثر من العودة إلى حدود

١٩٦٧ واحترام حقوق اللاجئين فى العودة إلى أراضيهم وأن يتم تعويضهم عما فقدوه ، وهذا سيكفى من أجل ضمان استقرار ووحدة اسرائيل " .

ويسترسل السقاف :

" نحن نحاول أن نحتفظ بالولايات المتحدة كصديق جيد فى الشرق الأوسط وكصديق جيد مع الدول الإسلامية ، ونحن نؤمن بأن الولايات المتحدة هي القائدة للعالم ، ونحن نعرف أن هناك حملا كبيراً على الولايات المتحدة ، ونحن نحتاجكم من أجل كل شئ ، التكنولوجيا .. إلخ ، ومن الممكن أن تقدموا مساعدة كبيرة بالنسبة لنا .. أشكرك يا سيادة الرئيس " الوثيقة الثانية — وزارة الخارجية — الأهرام — ٢٢ / ١٠ / ٢٠٠٣ .

ولنستمع إلى تعليق كسينجر على هذا الاجتماع فيما بعد عندما تحدث مع الرئيس نيكسون :

" ك : لقد تمكنا من استرضاء وزارء الخارجية المساكين هؤلاء .

ن : فى الوقت الذى نقوم فيه بإمداد اسرائيل .

ك : فى الوقت الذى تهبط الطائرات الأمريكية فى تل أبيب كل نصف ساعة . إن بعض الناس تأخذ كل شئ على أنه أمر مسلم به "

الأزمة — كيسنجر — الأهرام — ٥ / ١١ / ٢٠٠٣

وأعتقد الآن أنه مر وقت طويل ، أكثر من ثلاثين عاما ، من مطالبة السقاف نيابة عن العرب بالاحتفاظ بالولايات المتحدة كصديق ، بما يمكننا من رؤية ما حدث من هذا الصديق :

فرغم مرور هذه السنوات ما زال العرب عاجزين عن استيراد المرتفعات السورية والضفة الغربية ، التى يجرى تمزيقها ، وتهويدها ، وطرد شعبها ، على مرأي من الجميع ، بمساعدة السلاح والمال الأمريكيين كما أتمت أمريكا احتلال العراق ، البلد القوى والفاعل فى الجبهة الشرقية فى المواجهة مع اسرائيل ، وسوريا الآن محاصرة من اسرائيل والأتراك والأمريكيين فى العراق .. والسودان يجرى تمزيقه على قدم وساق ، ليتم التحكم فى منابع النيل ، شريان الحياة فى مصر .. وليبيا .. جرى تركيعها بمهانة .. فتحت أراضيها للأمريكيين والبريطانيين ليفتشوا فيها على أى أسلحة قد تطول إسرائيل .. وسوف تتخلص من صواريخها ذات

المدي الطويل ٨٠٠ كم .. وإيران الإسلامية البعد الإستراتيجى للعالم العربى فى حربه مع إسرائيل .. يجرى تركيعها أيضا وقد قبلت تفتيش الوكالة الدولية للطاقة على مفاعلاتها النووية ..

لقد تعلمت القوى الاستعمارية الدرس . كانوا فى الماضى يضربون مصر ، قلب العالم العربى ، ذات الشعب الكبير المتجانس ، والتى بدونها لا يمكن للعرب محاربة اسرائيل ، فكان العالم العربى يهب لنجدتها .. المظاهرات تشتعل ، ويقطع العمال العرب خطوط أنابيب النفط ، التى تمد الغرب ، ويمتنعون عن امداد السفن الغربية بالمؤن فى الموانئ العربية .. إلى آخر مظاهر النضال .. التى كانت تضطر الغرب للتراجع .

أما الآن فهم يضربون كل ما يحيط بمصر .. فلسطين ، سوريا ، العراق ، ليبيا ، السودان وبعد أن يجهزوا عليهم تماما .. سوف تكون مصر ثمرة ناضجة ، مؤهلة للسقوط ، هذا إذا لم تكن قد سقطت بالفعل .

ولقد كنا نفهم ، أن نغير سياستنا إذا كانت الولايات المتحدة وإسرائيل، قد غيرتا سياستهما لكن شيئا من هذا لم يحدث ..

" كانت الساعة تقارب الثالثة من صباح الثامن من أكتوبر .. حين حضر إلى مقر رئاسة الأركان المسئول الأمريكي الكبير ، وكان أحد العسكريين فى البنتاجون — وزارة الدفاع الأمريكية — والمسئول عن منطقة الشرق الأوسط بها ، وكان يحمل معه مجموعة من التقارير الخاصة والصور .. وكلها عن حالة القتال .. ثم الصور الخاصة بالمعارك .. وبمواقع القوات .. كما التقطها القمر الصناعي الأمريكي " مذكرات اليعازارص — ١٢٥

وفى موضع آخر :

" وبعد أن استعرض الموقف قال : إن الحل الوحيد هو عزل إحدي الجبهتين عن الأخرى ، أو بمعني أخر توجيه ضربة مكثفة على إحدي الجبهتين لشل الجبهة السورية ، أو الجبهة المصرية أولا .. حتى يستقيم لنا القتال على جبهة واحدة — أو ما يسمي بعملية الانفراد الجزئى لتحطيم التجمع الكلى " مذكرات اليعازار— ص ١٢٦ .

أما الخطة التى حملها المسئول الأمريكي فتتلخص فيما يلى :

" ١– توجيه ضربة قوية لسلاح المدرعات وأرتال الدبابات المصرية

الموجودة على ضفة القناة الشرقية لشل فاعليتها وفتح ثغرة بعد ذلك .. لضرب رءوس الكبارى .. فيتم عزل هذه القوات .

٢- محاولة جذب سلاح الجو المصرى .. لمعاك بعيدة عن أرض المعركة .. أي فى مناطق العمق المصرى .. باتجاه الكثافة السكانية فى مناطق المنزلة والمنصورة .. مما يجعل عمل صواريخ ٦ مقيدا ومحدودا " مذكرات اليعازارص ١٢٦ — ١٢٨ .

ومن المعروف أن اسرائيل قامت بهجمة مضادة أكثر من مرة وفشلت . وكذا قامت بضربة جوية فى اليوم التالى وفشلت فى تحقيق أهدافها ، كما قامت بمعركة جوية فوق المنصورة فى ١٢ / ١٠ / ١٩٧٣ اشتركت فيها ١٦٠ طائرة من الجانبين ، وكان العدد الأكبر منها اسرائيليا ، ومع ذلك تم تدمير ١٨ طائرة للعدو ، فرت بعدها باقى طائراته .

أما عن الجسر الجوي الذى حمل المساعدات العسكرية إلى اسرائيل ، فسوف أكتفى بما قالته جولدا مائير عنه :

" لقد اتصلت بى جولدا هاتفيا . وهي تقول أن الناس يبكون فى اسرائيل. لقد ذهبت للمطار ورأت رجالا أمريكيين يأتون بطائراتهم وقالت أن هذا كان أحد أكثر المناظر تأثيرا رأته فى حياتها " من حديث بين كيسنجر و دينيتز الأزمة — كيسنجر — الحلقة ٣٠ — الأهرام ٥ / ١١ / ٢٠٠٣ .

ولنستمع إلى فقرة أخرى من حديث بين كيسنجر والسفير الاسرائيلي سيمحا دينيتز :

" د : إن رئيسة الوزراء تود أن تنقل لك تقديرها العميق ليس فقط لمساعدتك ولكن أيضا لنصائحك الحكيمة ، وهي تقول فى البرقية أنك تفهم تماما الفكر الذى يدور فى رؤوسنا وكأنك تجلس معنا هنا وأهداف القتال الذى تقوم به واضحة تماما بالنسبة لك . وهدفنا هو أن الضربات الموجعة التى سنلحقها بالغزاة سوف تحرمهم من أية شهية للقيام بأية هجمات فى المستقبل " الأزمة — كيسنجر — الأهرام — ٢٠ / ١٠ / ٢٠٠٣ .

ويصرح كسينجر باستراتيجية الولايات المتحدة دون مواربة فى اجتماعه بجولدا مائير فى هيرتزيليا بالقرب من تل أبيب فى ٢٢ / ١٠ /

١٩٧٣ بقوله :

" ك : استراتيجيتي فى هذه الأزمة وكما شرحت لدينيتز عدة مرات هو أن نبقى العرب فى موقع منخفض وكذلك الروس فى موقع منخفض .

م : أنا أعرف ما قمت به . من دونك لا أعرف كيف كان سينتهي بنا الحال . لقد ذهبت إلى المطار فى ذلك اليوم وشاهدت الطائرات وهي تأتي . لقد كان الأمر أكبر مما يمكنني الحلم به " .

من محضر اجتماع مائير وكسينجر — الأهرام — ١٦ / ١٠ / ٢٠٠٣ .

أما عن تفسير كسينجر للقرار ٢٤٢ الذى نلهث وراءه ، يقول فى نفس المحضر السابق :

" أعتقد أن صياغة القرار ٢٤٢ هي نكتة فهو يتحدث عن سلام عادل ودائم وكذلك حدود آمنة ومعترف بها وما تزال هذه هي وجهة نظرى أن هذه الجمل لا تعنى شيئا " .

ويؤكد ذلك في كتابه الأزمة بالقول :

" تقييمنا هو أننا قد نكون فى موقف نضطر منه إلى ممارسة حق الفيتو ضد قرار يطالبكم بالعودة إلى حدود ١٩٦٧ " الأهرام — ٢٦ / ١٠ / ٢٠٠٣

أي أن الولايات المتحدة تعرقل أي مساع لجلاء إسرائيل عن الأراضى العربية المحتلة ، ولتطبيق قرار مجلس الأمن ٢٤٢ ، الذى مازلنا حتى اليوم نحلم بتطبيقه .

هذا وتتفق الاستراتيجية الإسرائيلية مع استراتيجية الولايات المتحدة . ولنستمع إلى قول ديان ، لناحوم جولد مان رئيس المؤتمر اليهودي العالمى فى اجتماع حضره كبار قادة اسرائيل وبعض الكتاب والصحفيين فى ٢٨ / ٨ / ١٩٧٣ فى تل أبيب . سأل جولدمان :

" — هل تعتقدون أن قوة اسرائيل فى الأراضى أو فى التسويات .. ؟ "

أجاب ديان :

" — إني لا أرضى إلا بسلام القوة .. الذى يحقق لإسرائيل الحدود الآمنة، وبالطبع لن يستطيع أحدنا أن يحدد مساحة هذه الحدود .. إنما تتغير تلقائيا نظراً لطبيعة نمو وتوسع اسرائيل . وإذا كنا نسعي لأن نكون نحن بديل القوى الكبرى فى الشرق الأوسط ، فيجب أن تكون لنا أنيابنا .

وهذه الأنياب عسكرية واقتصادية وجغرافية . والناب الأول .. أي الناب العسكرى .. يحقق الأنياب الأخرى " مذكرات اليعازا ص ٨٢ .

وفى نفس الاجتماع يقول إيلى أيال كبير كتاب صحيفة معاريف وعضو كتلة الليكود :

" إن لإسرائيل هدفا استراتيجيا لا يمكن تحقيقه على هذه الرقعة من الأرض "

يقصد اسرائيل قبل ١٩٦٧ . ويلاحظ أن "ديان" أدلى برأيه عن طبيعة النمو والتوسع .. فى وقت كانت اسرائيل تتمتع بحدود لا تحلم بها .. قناة السويس جنوبا والمرتفعات السورية شمالا ..ومع ذلك كانت تفكر فى الغزو .. وأعدت بالفعل خطة الحزام الأسود التى أشرنا لها لمزيد من التوسع وضم الأراضى ، طبقا لاستراتيجيتها .

أما عن السلام الذى نلهث وراءه ، فيكفى أن نقرأ ما خطه بيجن :

" لن يكون هناك سلام لشعب اسرائيل ، ولا فى أرض اسرائيل ، ولن يكون سلام للعرب أيضا مادمنا لم نحرر وطننا بأكمله حتى لو وقعنا مع العرب معاهدة صلح " ك (٥) التمرد — بيجن .

والوطن التى يقصده بيجن هو من النيل للفرات ، كما تدل على ذلك الخريطة المعلقة بالكنيست أما توقيع بيجن لمعاهدة سلام مع مصر ، فقد صرح أقطاب الليكود بعدها أنها مجرد هدنة لإخراج مصر من المعركة .. وبالفعل بعد أن ضمنوا خروج مصر .. غزوا لبنان ، ويقومون الآن بمحاولة إلتهام الضفة الغربية ، وقطاع غزة .

ويصرح بيجن فى نفس الكتاب :

" أنتم الإسرائيليون يجب ألا تأخذكم شفقة أو رحمة عندما تقتلون عدوكم .. يجب أن تقضوا عليه حتى ندمر ما يسمي بحضارة العرب الذى سوف نشيد على أنقاضها حضارتنا اليهودية " .

ويقول فى موضع آخر :

" فعنصر العنف والقوة جزء لصيق بالحركة الصهيونية ، والعدوان مسألة جوهرية وليست عارضة "

الرجل واضح .. فلماذا نخدع أنفسنا .

أما عن الطبيعة الاستعمارية للولايات المتحدة الأمريكية ، فهي واضحة بما لايدع مجالا لأي شك منذ نشأتها ، وحتى الآن .. فكيف نتعاون عسكريا معها .. ؟!

منذ استقلالها عن بريطانيا ، وقد أحست بقوتها البازغة جنحت لاستعمار الدول الأخرى ، ففى أواخر القرن الثامن عشر أنشأت أسطولاً قويا ، جاء يستعرض عضلاته فى البحر الأبيض .. وتقدم من الساحل الجزائرى فخرج له الجزائريون وهزموه ، انسحب الأسطول الأمريكي وأصلح من شأنه وعاد وهاجم ليبيا ، فخرج له الليبيون على ظهر سفنهم وهزموه هزيمة منكرة ، انسحب ولم يعد إلا فى القرن العشرين بما يسمي الأسطول السادس الذى يتخذ من جنوب إيطاليا قاعدة له .

وفى أوائل القرن الماضى اعترف الرئيس الأمريكي ويلسون بالحماية البريطانية على مصر عام ١٩١٩ :

" ونحيل القارئ الكريم إلى كتاب محمد فريد لمؤرخ مصر الكبير عبد الرحمن الرافعي حيث يذكر أن الزعيم الوطني الكبير محمد فريد قاد بنفسه فى مارس ١٩١٠ مظاهرة هائلة يرفرف عليها العلم المصرى توجهت إلى فندق شبرد حيث كان الكلونيل روزفلت (رئيس الولايات المتحدة الأسبق ١٩٠١ — ١٩٠٨) وهناك نادوا بالاستقلال وحياة الدستور وسقوط روزفلت .. وكان ذلك بسبب تصريحات روزفلت هذا ضد مصر والتى مجد فيها الاحتلال البريطاني لمصر " كتاب القدس[٦] — ص ١٥٣ .

وفى عدوان ١٩٥٦ على مصر ساعدت الولايات المتحدة بريطانيا بأن وفرت لها موتورات لطائراتها حتى تتمكن من الطيران من قبرص إلى مصر والعودة ، كما وفرت لها التزود بالوقود فى الجو .

أما عن عدوان ١٩٦٧ :

" ويذكر موسى صبرى عن هذا الدور فى افتتاحية جريدة الأخبار فى ١٢ / ٩ / ١٩٨٠ — دور أمريكا فى حرب ١٩٦٧ — نقلا عن كتاب جبال الرمال ، الفشل الأمريكي فى الشرق الأوسط لمؤلف أمريكي كان مستشاراً لوكالة المخابرات ، كيف أن جونسون رئيس الولايات المتحدة الأمريكية الأسبق ومستشاريه العسكريين كانوا هم الذين وضعوا خطة حرب ١٩٦٧ إلى

أصغر وأدق تفاصيلها " ك . القدس — ص ٣٨ .
وكان الأمريكيون أيضا ، هم الذي وضعوا الخطة التى ردت بها علينا اسرائيل فى عام ١٩٧٣ : يقول اليعازار فى مذكراته ، ص ١١٥ - ١١٦ :

" كنا قد طلبنا من الولايات المتحدة ومن الأجهزة المتخصصة بها ابداء الرأي العاجل فيما حدث ، وتزويدنا بالخطة التى يرونها صحيحة ومناسبة لمثل هذا الموقف . وفى أثناء الجلسة جاءنا الرد الأمريكي .. بأن ننتظر قليلا .. حتى يتم للخبراء الأمريكيين تقييم الموقف على ضوء التطورات الأخيرة بعد عبور المصريين للقناة وانتهاء فاعلية خط بارليف ، ولكنهم نصحونا بأن نحاول بكل جهد تحطيم رءوس الكبارى المصرية خلال الساعات الأولى من النهار — أي نهار السابع من أكتوبر — كما نصحونا أن نوجه ضربة قوية لشبكات صواريخ سام ٦ بسرعة وأن نتجنب القتال المباشر " .

وإذا كان توالى الأحداث ، قبل وبعد حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، قد أثبت أن أمريكا وإسرائيل لم تغيرا استراتيجيتهما السياسية والعسكرية ، فمن باب أولى أن نعود إلى استراتيجيتنا السياسية التى سرنا عليها منذ أوائل القرن العشرين حتى عام ١٩٦٧ عندما تم قبول قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ والذى يعني ضمنا الاعتراف بإسرائيل .

يقول الرئيس عبد الناصر فى اجتماع يوم ١٥ / ٨ / ١٩٦٩ باستراحة المعمورة حضره وزير الحربية وقائدا القوات الجوية والدفاع الجوي ، والسفير السوفيتي وكبير المستشارين وجنرالات وخبراء من القوات الجوية وقوات الدفاع السوفيتي :

" إننا قد وصلنا إلى موافقات كثيرة لحق اسرائيل فى الحياة . هذا الكلام قلته عام ١٩٦٧ . ورغم قبولنا القرار الأمريكي — السوفيتي الأول (يقصد المشروع الأول للقرار ٢٤٢ / ٦٧) رغم رفض العرب له إلا أن الأمريكيين تراجعوا وقدموا قراراً أسوأ وقد قبلناه أيضا ولكن اسرائيل لم تقبله " .
مذكرات الفريق أول محمد فوزي الحلقة ٤ الوطن العربى ١٣ / ١٢ / ١٩٨٥.

لقد أيدت مصر ثورة الشعب الهندي ضد الاستعمار الانجليزي ، ورفضت التدخل الأمريكي فى الحرب الكورية وامتنعتعن إرسال قوات إلى هناك ، إبان حكم الوفد . وساندت مصر ثورتي الجزائر واليمن بالمال

والسلاح والرجال ، ورفضت الانضمام للأحلاف العسكرية ، وساعدت ثورات الشعوب الأفريقية وشعوب أمريكا اللاتينية ، فى الحقبة الناصرية.

ونسمع الآن من يقول : أن الوضع قد تغير ، وأمريكا قوة مطلقة لا يمكن مقاومتها ، خاصة بعد اختفاء الاتحاد السوفيتي ، ونرد على ذلك أنه فى ظل هذا الوضع تمكنت دول صغيرة من تحدي الصلف الأمريكي واحتفظت بإرادتها الحرة لبناء مجتمعاتها .. ماليزيا (مهاتير محمد) فى جنوب شرق أسيا وكوبا وفنزويلا فى أمريكا اللاتينية ، وزيمبابوى (موجابى) فى أفريقيا ..

إن القوة لها سقف لا يمكن أن تتعداه . فرغم التفوق الاسرائيلي فى المدرعات والطائرات ، عجزوا عن احتلال مدينتي الاسماعلية والسويس فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، بفعل المقاومة الشعبية المصرية ، وفى العراق ، الأمريكيون عاجزون عن صد ضربات المقاومة العراقية ، ومن قبل خرج الاسرائيليون من جنوب لبنان رغم ترساناتهم العسكرية الهائلة ، تحت ضربات المقاومة اللبنانية ، ولم تستطع أمريكا لها شيئا ، بل لم تستطع لنفسها شيئا ، عندما أجبرتها المقاومة الصومالية فى عهد قريب ، من الرحيل عن الصومال .

حقا .. تستطيع أمريكا أن تحتل أي بلد ، مستخدمة تفوقها العسكرى .. لكنها لا تستطيع الاستمرار فى الاحتلال . إن وجود جيش الاحتلال على الأرض المحتلة ، يلغى تفوق قوته العسكرية ولا يستطيع الإفادة منه .. هل يمكن لأمريكا فى العراق أو لإسرائيل فى الضفة الغربية استخدام صواريخ كروز أو قنابل عنقودية .. أو أسلحة كيماوية .. أو طائرات ب ٥٢ العملاقة.

فور الاحتلال تصبح القنبلة اليدوية والأسلحة الرشاشة والمتفجرات العادية هي سيدة الموقف على الجانبين .. وبالطبع يكسب الشعب صاحب الحق والأرض والتاريخ ..

علينا أن نشرع فورا فى إقامة تضامن عربى .. هدفه الأوحد .. سحب الاعتراف باسرائيل والعمل على هزيمتها هزيمة نهائية ، وعدم التعاون مع الولايات المتحدة الأمريكية عسكريا واقتصاديا .. فالولايات المتحدة مهما امتلكت من أسلحة لا تستطيع مواجهة الشعوب العربية مجتمعة ..

ولنتذكر ما فعله كسينجر فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ للحيلولة دون فتح الجبهة الأردنية ، ومحاولة تعطيل وصول القوات السعودية إلى الجبهة .. واحتلال العراق الآن وحل جيشه ما هو إلا إحدي الحلقات للقضاء على الجبهة الشرقية فى مواجهة اسرائيل ، وتركيع ليبيا وتقسيم السودان ، ما هو إلا حرمان مصر من أي عمق استراتيجي ..

وبديهي أنه لكي تقوم هذه الجبهة ، فلابد من قيام جبهة داخلية فى كل بلد عربى على نفس الهدف ، ومهما كانت الخلافات فى المسائل السياسية والفكرية . جبهة تحمي الجيوش يوم الصدام ، جبهة تشعل أوار المقاومة الشعبية وتغذيها بالدعم البشرى والمادي .. جبهة لا يشغلها سوى العزم والإصرار على المقاومة ومؤازرة الجيوش النظامية ، لكي نستعيد كرامتنا ، ووجهنا المناضل الأبى .

إشارات :

١- كتاب " من مذكرات ديفيد اليعازار " ترجمة : رفعت فودة — دار المعارف — القاهرة — ١٩٧٩ .

٢- كتاب " عشية التدمير " تأليف هوارد بلوم — عرض وتحليل حسين عبد الواحد — نشر على حلقات بجريدتي أخبار اليوم والأخبار فى شهر أكتوبر ٢٠٠٣ .

٣- كتاب " الأزمة " تأليف هنرى كسينجر — ترجمة خالدداود . نشر بجريدة الأهرام على حلقات طوال شهرى أكتوبر ونوفمبر ٢٠٠٣ .

٤- كتاب " حرب أكتوبر ١٩٧٣ " تأليف : المشير محمد عبد الغني الجمسي — الطبعة الأولى ١٩٨٩ — المنشورات الشرقية — باريس ١٩٩٠ .

٥- كتاب " التمرد " تأليف : مناحم بيجن — هيئة الكتاب — ١٩٧٨.

٦- كتاب " القدس بداية النهاية لدولة اسرائيل " تأليف : طاهر البدرى — دار ميريت بالقاهرة — ٢٠٠١ .

المحتوى

صدر عن سلسلة إبداع الحرية

العنوان	النوع	المؤلف
١- بيت النسيان	قصص	عبد الفتاح عبد الرحمن الجمل
٢- عزف على أوتار الحب	شعر	محمد حسنى
٣- ثمة شئ فى يدي	شعر	فيصل عبده
٤- همس القلوب	قصص	عبد الفتاح عبد الرحمن الجمل
٥- الجانب الأخر من النهر	قصص	على الفقى
٦- أعلى من كل الناس	قصص	فريد محمد معوض
٧- المنصورة تصنع التاريخ	مقالات	فؤاد حجازي
٨- حاولت كتير	شعر	شكرى رمضان
٩- ديوان " ابن الشيخ "	شعر	فاروق أحمد الشيخ
١٠- إنهم يقتلون الأسرى	شهادات	فؤاد حجازي
١١- مقام الصبا	رواية	محمود عرفات
١٢- حكاية العمر	شعر	سيد مسعود
١٣- طالع يغني	شعر	على عبد العزيز
١٤- أحلام ترانزستور	قصص	عبد الفتاح عبد الرحمن الجمل
١٥- ورق حائط	قصص	محمد عبد السميع
١٦- فصلان من كتاب واحد	شعر	على عبيد
١٧- على شاطئ الجبل	قصص	محمود عرفات
١٨- صهيل المحارم	رواية	فؤاد حجازي
١٩- ساعات الانفجار	رواية	عبد الفتاح عبد الرحمن الجمل
٢٠- زهر الحناء	رواية	عبد الفتاح عبد الرحمن الجمل
٢١- بخور الذهب	رواية	السعيد أحمد نجم
٢٢- الولد اللى	شعر	محمد عزيز
٢٣- فى وجه الريح	رواية	فريد محمد معوض
٢٤- وطاويط	قصص	أحمد محي الدين خليل
٢٥- الحب عندي	شعر	محمد حسني
٢٦- البلد	مسرحية	ربيع عقب الباب
٢٧- أحلام بالكمبيوتر	دراما إذاعية	د. صلاح ترك
٢٨- ضحكات موجعة	قصص	السعيد أحمد نجم
٢٩- سفر الحرب والمقاومة	دراسات	فؤاد حجازي

رقم الإيداع بدار الكتب
٢٠٠٥/٩٢٣١
الترقيم الدولى I.S.B.N
977-374-071-4

دار الإسلام للطباعة والنشر
٠١٢٢٦١٤٣٦٣ — ٠٥٠ / ٢٢٥٠٤٥٣